

رَبِّكَ اللَّهُ

حَيَاتِهِ

الفصل الأول

اسمه ومولده وأسرته

اسمه ومولده :

هو محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي الزمخشري ، وكنيته أبو القاسم ، لقب بجار الله ؛ لأنه أقام في مكة مدة مجاورا البيت الحرام ، كما لقب بفخر خوارزم .

ولد بزمخشري ، يوم الأربعاء السابع والعشرين من رجب سنة سبع وستين وأربعمائة من الهجرة (١٩ مارس سنة ١٠٧٥ م) . (١)

أسرته :

لا يذكر المؤرخون شيئا ذاغناء عن أسرة الزمخشري ، وليس أمامنا إلا أن نتنسم بعض أخبارها مما قاله هو عنها في شعره ، وإن كان ذلك قليلا جدا .

يمكن أن نقول : إنه ينتمي إلى أسرة ذات ورع وتقوى ، عرف الناس عنها تعفها عما حرم الله ، نستشف ذلك من هذين البيتين اللذين قالهما مستغفرا الله ؛ لأنه نسب بالخمير وتحدث عنها .

١- انظر في ترجمته : معجم الأدباء ١٩/١٢٦ والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٥/٢٧٤ والمختصر في أخبار البشر ٣/١٦ وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ٢/٢٧٩ والأنساب ورقة ٢٧٧ وإنباه الرواة على أنباه النحاة ٣/٢٦٥-٢٦٦ ومفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم ٢/٩٧ - ١٠٠ واللباب في تهذيب الأنساب ١/٥٠٦-٥٠٧ والطبقات السننية في تراجم الحنفية ٤/١٢٥ والجواهر المضية في طبقات الحنفية ٢: ١٦٠ - ١٦١ والفوائد البهية في تراجم الحنفية ٢٠٩ ، ٢١٠ ومراة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة مايعتبر من حوادث الزمان ٣/٢٦٩ وشذرات الذهب في أخبار من ذهب ٤/١١٨ - ١٢١ والأعلام ٨/٥٥ وتاريخ آداب اللغة العربية ٣/٤٨ وتاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ٥/٢١٥ ومعجم المؤلفين ١٢/١٨٦ وقد انفرد صاحب بغية الوعاة بجعل ولادته في سنة ٤٩٧ هـ وهو خطأ لعله من تحريف النساخ .

أستغفر الله أنى قد نسبتُ بها ولم يكن لحميَاها بذواق
ولم يذقها أبى كلا ولا أحد من أسرتى واتفاق الناس مصداقى (١)

أما أبوه فيخبرنا صاحب «مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم» أنه كان إماما بقرية زمخشر. (٢)

وهو فى شعره يتحدث عن أبيه فى مناسبتين :

الأولى : نعرف منها أنه وقع فى أسر مؤيد الملك بن نظام الملك، فهو يستعطفه ليطلق سراحه من سجنه رحمة بأطفاله الضعفاء ورعاية لفضله وشبابه، قائلا :

أكفى الكفاة مؤيدَ الملك الذى خضع الزمان لعزّه وجلاله
أرحم أبى لشبابه ولفضله وأرحمه للضعفاء من أطفاله
أرحم أسيراً لو رآه من العدا أقسامهم قلباً لرقّ لحاله (٣)

ولانعرف لماذا سجن مؤيد الملك والد الزمخشرى ؟ ولانعرف إلام انتهى أمره ؟
ولكننا يمكن أن نقول : إن هذا الوالد كان لا يزال شاباً حين سجنه مؤيدُ الملك،
وإنه كان معروفاً بفضله .

الثانية : مناسبة رثائه وقد قال فيها قصيدة طويلة، بكاه فيها بكاء حاراً وعدد فضائله، ومنها :

فقدته فاضلاً فاظت مآثره العلم والأدب المأثور والورعُ
أخا طباع مصفاةً مناسبة ماء السحابة ما فى بعضها طبع
وذا حقائق لافى لحظه طلب لغير رُشدٍ ولا فى لفظه فدع
لم يالُ ما عاش جِداً فى تقاه ، يرى أن الحريص على دنياه مُنخدع
صام النهار وقام الليل وهو شج من خشية الله كابى اللون ممتقع

١- الديوان ٢١٦ .

٢- مفتاح السعادة ١٠٠/٢

٣- الديوان ٢٨٩ .

من المروءة في علياء ، منسج صدرًا وإن لم يكن في المال متسع
قريب عهد بوخط الشيب عارضه إثر الشباب ووحف الليل متبع^(١)

ومنها نعرف أن أباه كان فقيرا قليل المال ، كما كان فاضلا صاحب علم وأدب
وروع وزهد ، وأنه مات إثر الشباب في أول مرحلة الشيخوخة .

فإذا تقدمنا مع أبيات القصيدة وجدنا فيها مايدل علي أن الزمخشري كان
بعيدا عن أبيه حين مات ، ولعله كان مرتحلا لطلب العلم ، مما زاد ألمه وحسرتة
كما يقول :

وإن ممّا قرانى حسرةً وأسَى وضافنى الكربُ من جرّاه والوجعُ
إن عاقنى شحطُ دارٍ عن تفقّده حتى مضى وهو من نكرائى ملتذع
ياحسرتنا أننى لم أروغلتّه وغلّتى بزما أن فيه نجتمع
قد كنتُ أشكو فراقا قبلُ منقطعاً حتى أتىح فـراق ليس ينقطع^(٢)

وأما أمه فإنه يذكرها حين يسأله الدامغانى الفقيه الحنفى ببغداد عن سبب
قطع رجله فيقول : دعاء الوالدة ؛ وذلك أننى فى صباى أمسكت عصفورا وربطته
بخيط فى رجله ، وانفلت من يدي فأدركته وقد دخل فى خرّوق ، فجذبتّه ،
فانقطعت رجله فى الخيط ، فتألّت أمى لذلك وقالت : قطع الله رجل الأبعد كما
قطع رجله ، فلما وصلت إلى سنّ الطلب رحلت إلى بخارى لطلب العلم فسقطت
عن الدابة فانكسرت الرجل ، وعمّلت عملا أوجب قطعها .^(٣)

وإذا كان لهذه القصة من دلالة علي ماانصفت به هذه الأم فإنها تدل على

١- الديوان ٢٤٨

٢- الديوان ٢٤٩

٣- وكانت رجله اليسرى قد قطعت فى صباه ، واتخذ رجلا من خشب ، وكان يلقي عليها
ثيابه الطوال فيظن من رآه أنه أعرج . قيل فى سبب قطعها أقوال آخر ، منها أنه أصابه خراج
فى رجله فقطعها ، ومنها أنه أصابه برد الثلج فى بعض أسفاره بخوارزم فسقطت رجله .
انظر معجم الأدباء ١٢٧/١٩ والطبقات السنّية ١٢١/٤ وشذرات الذهب فى أخبار من ذهب
١١٩/٤ .

تقواها وعلى الرحمة التى طَبِعَ عليها قلبُها ، وعملت على غرسها فى ابنها منذ صِغره ، فقد ألمها أن يعذبَ هذا العصفور ، ورق قلبُها لهذا الطائرِ الضعيفِ رقة تضائل بجانبها حبها لابنها العاثر فنهرته داعية عليه بقطع رجله ، وكأنها أرادت بهذا الدعاء أن تذكره بالإله العادل الذى يحاسبُ المعتدين ويقتصُ للمظلومين من الظالمين .

وأكبرُ الظن أن هذه الأم قد عاشت بعد وفاة الأب ، وأنها هى الشفيقة الشمطاءُ التى تعنيها حبيبةُ الشاعر حين أرادت أن تثنيه عن سفره مَ به ، فذكرته بها قائلة له :

فإذا جفونك خاطها	طيب الكرى ونعمت بالك
قامت تناجى الله طو	ل الليل تشكر ما أنالك
ومتى أحست فترة	بك كيف لورأت اعتلاك
طافت مروعة بتفد	ية وتعويد حوالك
روح المعيشة زائل	عنها إذا سمعت زيالك
وترن مثل القوس إن	سددت من عزم نبالك
ألقي العصا فى بيتها	وارفض مسيرك وانتقالك(١)

وحين تموت يرثيها بأبيات منها :

ياحادثات الدهر أُمى بعدما أدركت أُمى بالردى من شيت(٢)

ولعلها المقصودة بالثناء فى قصيدته التى يقدم لنا فيها أما صالحة انتقلت الى جوار ربها ، فحلت دار السلام ، ونزلت جنة الفردوس ، ولكن ماعليه الابن من وجد وبرحاء لفراقها يؤلها فترسل إليه هذه القصيدة تحثه على الصبر ، وخلص ملابس الحداد ، وترك الأحزان ، فقد بكأها شهرا كاملا وهو بذلك قضى فوق

١- الديوان ٢١٩

٢- الديوان ٢٨٤

ما يجب على الأبناء ، ثم تعدد له ألوان النعيم التي تتقلب فيها فى دارها الأخرى .
ومن أبياته فى هذه القصيدة:

أبأ الوفاً وفيت أى وفاء وقضيت فوق شرائط الأبناء
ولبثت شهراً كاملاً مستعبراً قرح المأقى خافق الأحشاء
إيها فقد حققت فى جميع ما يحكون فى صخر عن الخنساء
وتعزى عنى واسل سلوة صابر وتخط قولك لات حين عزاء
أبنى إنى فى الجنان مقيمة اختال بين ظليلة الأفياء
ثم تقول :

أعزى على بأن تطول مسرتى وتطيل أنت تنفس الصعداء
كنأ قسىمى فرحة ومساءً ولقد سررت فلم أسيت ورائى
لا تجعل السراء عندى - إننا أصل وفرع - علة الضراء (١)
وكما سلبه الموت أباه وأمه تخطف عدداً آخر من أقربائه، الواحد بعد الآخر،
يذكرهم الزمخشري فى مجال الشكوى أو الرثاء .

فيشكو النواذب التي حرمته جده وأخاه وعمه وخاله فيقول :

ياخير خالين إنى بعد فقد كما من لوعة وأسى فى شرخالين
وإن فرقة خال واحد حطمت ظهري ، فكيف إذا فارقت خالين؟ (٢)
ومن هذه الصورة المتواضعة التي قدمتها لأسرة الزمخشري مستشفى من
شعره يتضح أنها كانت أسرة فقيرة متدينة لها حظ من علم وأدب ، وأنه قد فقد
أكثر أفرادها فى حياته .

١- الديوان ٢٨٥ .

٢- الديوان ٢٥١ .

الفصل الثانى

رحلة عمره

الصبى الشغوف بالعلم :

ولد الزمخشري ونشأ فى عهد السلطان «جلال الدين أبى الفتح ملكشاه» وعهد وزيره «نظام الملك» ، وهو عهد حظى بالاستقرار السياسى والأمن الاجتماعى والنهضة العلمية؛ وذلك بفضل ما عرف به السلطان من الشجاعة وصواب التدبير وحسن السيرة ، وما عرف به الوزير من حسن السياسة ورعاية أهل العلم والفضل ، وعن هذا الجانب من سيرته يقول العماد الأصفهانى «وفى أيامه (أبى نظام الملك) نشأ للناس أولاد نجباء ، وتوفر على تهذيب الأبناء الآباء ليحضرهم فى مجلسه ، ويحظوا بتقريبه ، فإنه كان يرشح كل أحد لمنصب يصلح له بمقدار ما يرى فيه من الرشد والفضل ، ومن وجد فى بلد قد تميز وتبحر فى العلم بنى له مدرسة ، ووقف عليها وقفا وجعل فيها دار كتب ، وفى عصره نشأ طبقات الكتّاب الجياد ، وفرعوا المناصب ، وولوا المراتب ، ولم يزل بابه مجمع الفضلاء ، وملجأ العلماء ، وكان نافذ البصيرة ينقب عن أحوال كل مهم ، ويسأل عن تصرفاته وخبرته ومعرفته ، فمن تفرس فيه صلاحية الولاية ولاه ، ومن رآه مستحقا لرفع قدره رفعه وأعلاه ، ومن رأى الانتفاع بعلمه أغناه ، ورتب له ما يكفيه من جدواه ، حتى يتطلع الى إفادة العلم ونشره ، وتدريس الفضل وذكره ، وربما سيره إلى إقليم خال من العلم ليحلى به عاطله ، ويحى به حقه ، ويميت باطله. (١)

فى هذا العهد الزاهى ولد الزمخشري وعاش فترة صباه ، فلا عجب أن يوجهه أبوه وجهة العلم ، لاسيما أن هذا الأب كان إماما بالقرية صاحب علم ودين ، ولاشك أن الابن قد استفاد من علم أبيه فى سنه الأولى التى قضاها بزمخشري . وما إن يبلغ الطفل سن الطلب حتى يعده أبوه للرحيل إلى بخارى ولكن القدر

١- تاريخ دولة آل سلجوق ٥٤ .

لايمهل هذا الصبى ، وتقع الحادثة التى انتهت بقطع رجله، ويتألم الأب ، ويشفق على الابن من السفر والاغتراب ، ويرى أن يعلمه الخياطة؛ لأنه صار زمينا مبتلي ، غير قادر على طلب العلم والسعى إليه ، ولكن الابن يقول فى إصرار وقوة عزم وتحد للصعاب : احملنى الى البلد واتركنى ، ويحمله أبوه إلى البلد^(١) ويطلب التلميذ العلم فى خوارزم وبخارى وغيرهما من حواضر الدولة ومراكز الثقافة .

الشاب الطموح:

لاتكاد المراجع تذكر شيئا عن حياة الشاعر فى مرحلة شبابه ، اللهم إلا إشارة عابرة إلى أنه «كان فى الحادى والأربعين من عمره ينادم الوزراء والملوك ويمدحهم، ويتنعم بالدنيا إلى أن أراه الله تعالى رؤياه ، فكانت سبب انقطاعه عنهم، وإقباله على أمر دينه»^(٢) وسوف أتحدث عن هذه الرؤيا وما أعقبها بعد ذلك ، ولكن يهمنى هنا أن أقول: إنها تعد حدا فاصلا بين طورين متميزين من حياة الشاعر : طور الشاب المقبل على الدنيا المتنعم بطيباتها ، وطور الشيخ الزاهد فيها المقبل على أمور دينه .

وأمام هذا الغموض الذى اكتنف حياة الزمخشري فى طورها الأول لانجد أمامنا إلا شعره، نحاول أن نستضى به فى تقديم تصور لهذا الطور من حياته .

١- اتصاله بكبار الشخصيات فى الدولة :

عرفنا الزمخشري منذ صغره قوى الإرادة ، شديد الطموح ، محبا للعلم ، سعى إليه فى ظروف شديدة الصعوبة ، فالأسرة فقيرة لاتقوى على تحمل أعبائه، وهو ضعيف الجسم سلبه القدر إحدى رجلية ، ولكن نكاهه وإقباله على العلم وحسن خلقه كان خير معين له فى هذه الظروف ، فقد جعلته هذه الصفات أثيرا عند أساتذته لاسيما أستاذه أبو مضر .

وفى شعر الزمخشري مايدل على أنه كان يحيا حياة صعبة فى هذه الفترة،

١- مفتاح السعادة ٢/ ١٠٠ .

٢- مفتاح السعادة ٢/ ١٠٠ .

وعلى أن استأذنه أبا مضر الضبي قد وقف بجانبه يوسع عليه ماضاق من سبل عيشه ، ويخفف عنه شدائد حياته ، ومن ذلك قوله يشكو حاله إلى نظام الملك :

إليك نظامَ الملك شكواى فاستمع إلى بثِّ مجذوذ المعاشِ ضنكها
طريحَ خطوب كلِّ يوم تنويه بيائقة تنحى عليه ببركها
ولو لم يل الضبي عنى عراكها لغالت يدُ البلوى أديمى بعركها(١)

فكان الضبي له الأستاذ والأب يساعده بماله ، ويتعهد به علمه وأدبه ، وحين شب وأنس فيه المقدرة والكفاءة لم يبخل عليه هذا الأستاذ البار بجاهه فقدمه إلى وزراء الدولة من أسرة نظام الملك ، ولاشك أن مكانة أبي مضر لدى هذه الأسرة قد ساعدت الزمخشري في توطيد صلته بهم ، ويؤكد ذلك أننا نرى الزمخشري يتشفع بهذا الأستاذ لديهم بعد وفاته فيقول لأحدهم :

ثنائى لصدر الملك - ماعشت - دائمٌ وإن دعائى مثله فى دوامه
جعلتهما وردى نهارى وليلتى كفعل الفتى فى صومه وقيامه
وكان فريد العصر عبدا مقربا وما أنا إلا هضبة من شمامه
وقد أوجب المولى لنا فى قبيله قضاء زمام الحر بعد حمامه(٢)

ووسع الزمخشري اتصالاته بكبار رجال الدولة وارتحل إليهم فى خراسان وأصفهان وغيرهما فمدح غير أسرة نظام الملك الخليفة العباسى المستظهر بالله(٣) ، والسلطان السلجوقى سنجر(٤) والخوارزمشاه محمد بن أنوشتكين(٥) ، ومجير الدولة الأردستانى كاتب الرسائل المشهور(٦) وغيرهم من كبار الشخصيات فى عهده ، وله فى شرف الملك محمد بن منصور أبى سعد المستوفى الخوارزمى مدح كثيرة (٧).

٢- الديوان ٥٠ .

١- الديوان ٥٣

٤- الديوان ٣٦٣ .

٣- الديوان ٣٩ .

٦- الديوان ٥٤ .

٥- الديوان ١١٢

٧- الديوان ٣٠١ ، ٢٩٧ ، ٢٨٦ ، ٢٧٩ ، ٦٦ .

ولكن هل سعد الزمخشري بهذه الاتصالات ؟ وهل حقق ماكان يطمح إليه في هذه الفترة ؟

لقد نال الزمخشري جوائز المدوحين، وشعره الذى يشكر فيه نعمهم عليه كثير ، ومنه قوله فى أحد ممدوحيه ولعله شرف الملك :

يمينُ عبِيدِ اللّهِ لستُ أُغْبِئُهَا شكرا ، وليس يَغْبِئُنِي نَعْمَاؤُهَا
فى كلِّ يومٍ مِنْهُ سَيِّبٌ فَائِضٌ وقصيدة منى يطيب ثناؤها
لازلتُ مثلَ الأرضِ أنبتُ شُكْرَهُ ويمينه تهْمى على سماؤها(١)

وصاحب «إنباه الرواه» يخبرنا بأن مجير الدولة الأردستانى قد خلع عليه، وأعطاه فرسا وألف دينار جائزة له على قصيدته فيه التى بدأها بقوله :

أياحبذا سَعْدَى وَحُبِّ مَقَامِهَا وياحبذا أن تستقلّ خيامها(٢)

وحين يحدثنا عن أيام شبابه بعد مضيّه يذكر ألوان النعيم الذى كان يتقلب فيه حينئذ فيقول :

فلله وقت لم يلمّ بلمتى مشيبٌ وسربالُ الشبابِ قشيبٌ
وماغزلى إلا كروض يروده غزالٌ أحمرُ المقلتين ربيبٌ
ويرتفع فيه من مها الإنس جُوذُرٌ صيودٌ بسهمى ناظريه مُصِيبٌ
ليالى فضلى حيثُ شئتُ منزلٌ وشعرى له الشعرى العبورُ حبيبٌ
فما يتعاطى قوس فهمى مفلقٌ ولاسيفٌ قولى ينتضيه خطيبٌ
على انثيالٍ للصلات يفيضها على محبٍ للثناء وهُوبٌ
ولى خلعُ شتى سحبتُ فضولها وكل صديق لى لهن سحوبٌ
ويارب يوم أهديت لى وصيفةً من اليافثيات الملاح لعوبٌ

١- الديوان ٣٩٩

٢- إنباه الرواة ٢/٢٦٦ .

تضايقت العينان منها وفيهما مجال لسِحْرِ البابلى رحيب
يلوح لنا بعضُ السواد بلحظها وفى ضحكها كل السواد يغيب
فياطيب أيام وياطيب ذكرها إلا إن عيشى بعدهنَّ جديب(١)

ومع هذا فإننا نطالع فى كثير من مدائحه -ومعظمها من نتاج هذه الفترة-
إحساسا بالألم وشعورا بالظلم والضياع ، ونقدا لعصره الذى آخى الجهلاء
فأعطاهم ما لا يستحقون ، وخاصم الفضلاء من أمثاله فغمطهم حقوقهم .

ومن قصائده التى تطالعنا فيها هذه الأحاسيس والخواطر قصيدته إلى صدر
الكفاة وفيها يقول :

خليلى هـل تجدى على فضائلى إذا أنا لم أرفع على كل جاهل
من الغبن ذو نقص يصيب منازلا أخو الفضل محقوق بتلك الأفاضل
كفى حزننا أن يرغمَ الحلم والحجا تصدُّر بادٍ طيشه غيرُ عاقل
ومن لى بحقى بعدما وفرت على أرذلها الدنيا حقوقَ الأمثال
كذا الدهرُ ، كم شوهاء فى الحلى جيدها وكم جيد حسناء المقلد عاطل
ومما شجانى أن غرَّ مناقبى تغنّى بها الركبان بين القوافل
وطارت إلى أقصى البلاد قصائدى وسارت مسير النيرات رسائلى(٢)

ثم يقول :

أحظى منقوص ولست بنواقص وكم كامل حظا وليس بكامل
وما الشأن فى هذا الحقير ووزنه ولكنه استحقاق وزن الفضائل
فلا ترضَ يا صدرَ الكفاة بأن ترى أعالى قومٍ ألحقوا بأسافل(٣)

٢- الديوان ٧٠ .

١- الديوان ٩٩ .

٣- الديوان ٧١ .

ويقول :

ولم أدر أنّ الأردنيين يرون ما تمنّوا ، وأنّى لستُ أحظى بطائل (١)
فما حقه الذى ضاع ؟ وماحظه الذى نقص وقد أخذ جوائز الممدوحين كما
سبق أن قلت ؟

لم تكن الجوائز كل مايرجوه الشاعر من ممدوحيه ؟ وإنما كان يطمح فى المقام
الأول إلى منصب من مناصب الدولة يرفع شأنه ، ويسمو به إلى المكانة التى أعد
نفسه لها بعلمه وأدبه ، فلا غرو أن وجدناه فى الموقف الواحد يشكر ويشكو ،
يشكر نعم ممدوحه وجوائزه ويشكو ضياع حقه وعدم التقدير لفضله ، كما نجد
هذه الأبيات التى يخاطب بها ربيب الملك :

إليك ربيبَ الملك أشكر أنعمًا ليُمنّاك هطّالا على ربابها
وقائمةٌ منّى لك الدعوةُ التى يجوبُ السمواتِ العلا مستجابها
وأشكو إلى ترشيحك الفضلَ أننى بأرض أطارتُ حقّ فضلى عقابها (٢)

فلما أخفق فى الظفر بما يطمح إليه ملاً الهمة قلبه ، وطفحت نفسه غضبا على
المجتمع وسخطا على الحياة لوّنا معظم شعره بهذا اللون القاتم الحزين ، ولم
تبدد جوائز الممدوحين حسرته ، ولم تُنسه الإحساس بالجور الذى وقع عليه ، بل
إنه كان يجد فيها وفيما ينظمه من أجلها ذلاً وتملقاً لا يليقان بأمثاله من الأحرار
الفضلاء ، ولولا الضرورة الملحة لما سعى إلى تلك الجوائز ولما أخذها ، يعبر عن
هذا الإحساس قوله فى ختام قصيدته السابقة :

وحسبك أنى ماعملت قصيدة سوى هذه فيها تملّق سائل
ولكن إذا ماعض بالحردهـرهُ تغير عن عاداته والشواكل (٣)
ولم يكن الممدوحون كرماء معه دائماً ، فقد يرتحل إلى أحدهم ، مكلفا نفسه

١- الديوان ٧١ . ٢- الديوان ٤٦ .

٣- الديوان ٧١ .

ملا يطبق أمثاله من مشققات السفر ، ويمدح فلا يكون جزاؤه إلا الإعراض عنه ، أو
الوعد المتكررة أو المنحة القليلة التي لاتغنى شيئا ، وحاجة الشاعر لاتعفيه من
أن يركب الصعب فيعيد الكرة - على الرغم من نفسه الحرة الأبية - مجددا المدح
مذكرا بما سبق من الوعد معاتبا على المماثلة معتذرا عن الإلحاح ، من ذلك قوله
لأحد ممدوحيه :

يامن مكارمهُ غُرٌّ محجَّةُ كأنها فى اشتهاً بلق أفراس
الرأس أنت فلا تسـتـنكرن إذا صدعت ، هل ينكر التصديق للراس؟
ماذا التثاقل عن برِّي وتكرمتي وأنت من نفر فى البر أكياس ؟
أوحشتنى بمطال طـال مدته وكان يمكن بالتعجيل إيناسى
أنطق لسانى بإحسان أقوم به خطيب شكرٍ فقد طولت إخراسى (١)

ويطالعنا فى قصيدة أخرى ، وقد ارتحل إلى خراسان مادحا مؤيد الملك ، مذكرا
إياه برحلته السابقة إليه فى صيف العام الماضى ، يقطع الفيافى ، ويصطفى بنيران
الشمس ، ومع هذا فقد أخفق مسعاه فلم ينل منه بغيته ، ثم يرجوه أن ينعش
جده فى هذه المرة فيقول :

إليك سقت ركابى قبل عامك فى صيف يذيب دماغ الضب صيخده
قطعت خرقا كان الال يهزا بى ضحى إذا مازها الأشخاص فدفعده
حتى خدمتك بالمدح الذى خفقت به الرياح وقام الدهر ينشده
من الكلام الذى مافى زمانك من يحل بعض معانيه ويعقده
فى مجلس رتب السادات قاطبة فيه وكانت وفود الشرق تشهده
وكان عقود رجائى أن أفوز بما ينال مثلى عند الحر يقصده

لكن أبى ذاك جدُّ لا انتعاش له ولم تزل دولُ الدنيا تنكدهُ
فإن تشأ - ولك الدنيا مساعدة - نعشتُ جدِّي بإنعام تجددهُ (١)

وهكذا لم يسعد الشاعر باتصالاته بكبار الدولة ، فقد ضنّوا عليه بالمنصب
وأجاؤوه إلى المدح المستجدي ، وأكثرُوا مطاله ، وأقلّوا نواله ، فجرحوا كبريائه ،
وأدموا طموحهُ ، وأمدوا شعره بفيض من الشكوى المرة الساخرة .

وإن البون لجد شاسع بين شاعرنا حين استقبل الشباب طمّوحا ، مقبلا على
الدنيا ، تحدوه آمال كبار ، يجد نفسه خيراً كفاء لها ، ولسان حاله يقول :

حركتُ في طلب العلياء من هممي وإنمّا يطلب العلياء أمثالي (٢)
وبينه حين ودّع هذا الشباب يائسا من دنياه ، كارها ما طبعت عليه من جور
ولسان حاله يقول :

عفاءً على الدنيا طويلٌ لرفعها منا سمها السفلى على أسنماتها (٣)
ب- انصرافه عن الزواج :

لم يتزوج الزمخشري ولم ينجب أولادا، فإذا أردنا أن نعرف سبب ذلك من
شعره رأيناه يتحدث عن فساد الأولاد، وشقاء آبائهم بهم في أكثر من موطن، من
ذلك قوله :

تصفّحتُ أولاد الرجال فلم أكذ أصادفُ من لا يفضح الأم والأبا
رأيتُ أبا يشقى لتربية ابنه ويسعى لكى يدعى مكباً ومنجبا
أراد به النشء الأعز فما درى أيوليه حجرا أم يُعليه منكباً
أخو شقوة مازال مركبَ طفله فأصبح ذاك الطفلُ للناس مركباً

٢- الديوان ٢٣٢ .

١- الديوان ٢٣٥ .

٣- الديوان ١١٤ .

لذلك تركتُ النسلَ ، واخترتُ سيرةً مَسِيحِيَّةً ، أحسنُ بذلك مذهباً(١)
 فرغب عن الزواج ، حتى لايشقى بمثل هؤلاء الأبناء الذين يرهقون آباءهم
 صفاراً ويفضحونهم كباراً ، وعبثاً ينصحه قومه لاثمين إياه على ترك الزواج
 والنسل ، وفي ذلك يقول :

يُمَوِّهُ قَوْمِي بِالتَّنْصِيحِ لَوْمَهُمْ وَإِنْ عَنَاءَ لَوْمَهُمْ وَالتَّنْصِيحُ
 يَلُومُونَنِي أَنِّي نَأَيْتُ بِجَانِبِي عَنِ النَّسْلِ الْوَيْ عَنهُ رَأْسِي وَأَجْمَحُ
 أَتَلْحَوِّنُ لَوْأَمَا عَلَى النَّسْلِ أَهْلَهُ ؟ إِذَا لَمْ يَفِدْكَ الْقَوْلُ فَالصَّمْتُ أَصْلَحُ
 كَأَنَّكُمْ لَمْ تَسْمَعُوا أَنْ مَنْ لَهُ عِيَالٌ شَقِيٌّ دَهْرَهُ ، لَيْسَ يُفْلِحُ
 قَبِيحٌ بِمِثْلِي وَالبَنُونَ - كَمَا رَأَى - جَنُودٌ فَسَادٌ ، لَيْسَ فِي الْأَلْفِ مُصْلِحٌ
 تَصَدُّ لِنَسْلِ مِثْلَهُمْ ، إِنْ فَعَلَ مِنْ يُؤَلِّدُ فَعَالَ الْقَبِيحَاتِ أَقْبَحُ
 إِذَا ارْتَكَبَ الْإِبْنُ الْخَلِيْعُ فُضِيحَةً فَذَلِكَ لِعَمْرِ اللَّيْلِ لِلْأَبِ أَفْضَحُ
 وَكُلُّ صَنِيْعٍ لَيْسَ لِلنَّفْعِ جَالِباً وَجَرَّ وَجُوهُ الضَّرِّ فَالْتَرِكَ أَرْوَحُ(٢)

وفي تعزية والد في طفله الذي مات صغيراً يقول :

وَأَسْعِدِ النَّاسَ نَاسٌ قَطُّ مَاوَلَدُوا وَلَاغْدُوا لِخِرَابِ الْأَرْضِ عُمَاراً
 فَلَمْ يَذُوقُوا بِأَوْلَادٍ إِذَا انْقَرَضُوا تُكَلَّأُ وَلَا رَاعِهِمْ بَيْتٌ إِذَا انْهَارَا(٣)
 فهو يرى أن أسعد الناس من لم ينجب ولدا ولم يبن داراً، فمثل هذا في مآمن
 من أن يتآلم لفقد ولده أو (تقوُّض) داره .

وأغلب الظن أن هناك أسباباً أخرى وراء تركه الزواج لم يفصح عنها ، لعل منها
 فقره وفقدانه الاستقرار المادي بعد أن أخفق في الظفر بمنصب يؤمن حياته ،
 ولعل علته الجسمية بسبب قطع رجله جعلته يشعر بالضعف والعجز عن تحمل

٢-الديوان ٢٥٣ .

١-الديوان ١٤٣ .

٢-الديوان ١٤١ .

أعباء الزواج ومسئوليات الأسرة، ولعله كان يراها وصمة تنفر منه النساء ، وربما وقع له ما يؤكد ذلك الإحساس فإن فى شعره ما يوحى بذلك ، فحين يتغزل بسعدى ، ويصف حنينه إليها ، يتحدث عن عجزه عن الوصول إليها، ذاكرا ضعف جسمه، ومشيرا إلى ما أصيب به من قطع رجله، ثم يرجوها أن تغفر له هذه العاهات، ولا تعزف عنه بسببها، فله من فضله وتعففه ما يستر مثل هذه المعاييب التى لا يد له فيها، فيقول :

يَحِنُّ إِلَى سَعْدَى وَدُونَ مَزَارِهَا صَحَاحِ بَيْدٍ دُونَ بَيْدِ صَحَاحِ
وَمِن لَأخَى الْجِسْمِ الْعَلِيلِ بِقَطْعِهَا وَأَعَيْتِ عَلَى أَهْلِ الْجِسْمِ الصَّحَاحِ
غَمَرْتُ بِفَضْلِي وَالتَّعَفَّفِ وَصَمَةً أَصَابَتْ بِهَا الْأَيَّامُ بَعْضَ جَوَارِحِي
فَلَا تَنْكُرِي أَنِّي أَصَبْتُ بِمِثْلِهَا فَكَمْ مِنْ فُلُولٍ فِي شِفَارِ الصَّفَائِحِ (١)
ولعله يرمز بهذه البئد التى يضعف جسمه عن قطعها وصولا إلى محبوبته إلى تمنع الحبيبة عليه، ورغبتها عنه بسبب علته .

وفى موطن آخر يتحدث عن موقف سعدى هذا بما هو أكثر صراحة، فيقول :

لَقَدْ نَظَرْتُ سَعْدَى إِلَى فَأَنْكَرْتُ أُمُورًا سِوَاهَا بِالنَّكِيرَةِ أَجْدَرُ
فَلَا تَسْخَرِي مِنْ سَاقِ رِجْلِي وَغَمَزْهَا فَفِي سَاقِ حَالِي مَوْعِ الْغَمَزِ أَظْهَرُ
وَلَا تَضْحَكِي مِنْ بَغْلَتِي وَقُطُوفِهَا فَمَا قُطِفَ مِنْهَا جَدِّي الْمَتَعَثُّرُ
وَإِنِّي وَإِنْ رَأَيْتِ بَعِينِيكَ بَرَّتِي لَمِنْ تَحْتِهَا بَحْرٌ جَرَّتْ مِنْهُ أَبْحُرُ (٢)

ولعل عشقه للعلم والأدب ملك عليه أقطار قلبه وشغله عما سواهما ، فقد آثر أن يتخذ من دراسة العلم زوجا، ومن مؤلفاته بنين وبنات هم أحب لديه من أبناء الصُّلب ، يعبر عن ذلك فيقول :

بَنِي فَاَعْلَمُ بِنَاتُ فِكْرِي حَصَانُهُمْ أُمَّةُ الدِّرَاسَةِ
أَبْنَاءُ صِدْقٍ لَهُمْ نَفْسُوسُ وَصِفْنِ بِالْفُضْلِ وَالنَّفَاسَةِ

١- الديوان ٨٥ .

٢- الديوان ٨٣ .

حِمْيَاةٌ عَرَضِيٌّ مَحْصُونُهُ فِي كَنْفِ الصَّوْنِ وَالْحِرَاسِهِ
بِرِّ صَرِيحٍ بـــــــلَا عَقُوقٍ خُلُقٌ سَجِيحٌ بِلَا شَكَاةِ
مَانَسَلٌ قَلْبِي كَنْسَلٌ صُلْبِي مِنْ قَاسِ رَدِ النُّهْيِ قِيَاسِهِ
مِنْ سَاسِ أَيْنَاءِهِ فَيَأْتِي لِهَوْلَاءِ الْبَنِينَ سَاسِهِ (١)

ج- حظه من مرح الشباب ولهوه :

وهذا جانب لا بد منه لاستكمال صورة شبابه، وهنا نجد سؤالاً يطرح نفسه :
أكانت حياة شاعرنا في شبابه حياة العالم المتزمت التي تسير على وتيرة واحدة
جادة صارمة ، أم كان يتخللها ساعات يفرغ فيها لنفسه ، فيخف إلى مواطن
اللهو ويمرح مرح أمثاله من الشبان؟

فيما عدا شعره لانجد إلا ماقاله صاحب مفتاح السعادة في عبارته التي سبق
ذكرها «أنه كان ينادم الملوك والوزراء ويتنعم بالدنيا» (٢) .

وهذه العبارة - على إجمالها - تغرينا بأن نصدق بعض ماقاله في شعره عن
مرحه في شبابه ، وحرصه على أن يأخذ حظه من اللهو فيه ، فمنادمة الملوك
والوزراء تتيح لصاحبها مشاهدة مجالس مرحهم ومواطن لهوهم عن كَثَبٍ ، وقد
يجد في نفسه ميلاً لأن يشارك فيها بالقدر الذي تسمح به ظروفه، وقد سبق
الحديث عن تنعمه بجوائز الممدوحين، وذكر بعض ماقاله في ذلك من شعر (٣) .

أما مرحه ولهوه في شبابه فقد تغنى به في كثير من شعره ، وعلينا أن
نتحفظ أيما تحفظ حين نحاول أن نستمد من هذا الشعر بعض الخيوط لنسج
صورة هذا الجانب من شبابه ، ذلك أن الكثير مما قاله في هذا المجال يدخل في
إطار خيالات الشعراء ، وتحكمه نزعتهم إلى تقليد من سبقوهم من فرسان اللهو
والعبث، مما يجعله بعيداً عن الارتباط بواقعهم وحياتهم .

٢- مفتاح السعادة ٢/ ١٠٠ .

١- الديوان ٦٤ .

٣- انظر صفحة ٥٨ من هذه الدراسة .

إذا أخذنا ذلك كله فى الحسبان فإننا نجد فى بعض هذا الشعر من ملاءمة فطرة الشباب ومساوقة طبعهم ما يرجح أنه تعبير صادق عن واقع الشاعر وحياته فى هذه الفترة من مثل قوله :

غينُ على بطالاتى إذا فقدتُ فى عنفوان شباب غير مفقود
ماء الشبيبة لاتصفو مواردهُ إلا بشربٍ من اللذات مورود
يوم يمرُّ بلا لهو ولا لعبٍ مازلك اليوم من عمرى بمعدود
ما أنسَ لا أنسَ أياما تصانِعنى بكل مضطمر الكشحين مقدود
كم ارتشفتُ رضاها كالعقار وكمُ الصقتُ خدى بخد الكاعب الرود
يدائ لادرُ درى كم جعلتهمَا وشاح مثل قضيب البان أملود(١)

ولا يخفى مافى الأبيات من روح شابة مريحة تحرص على حفظها من لذات الحياة ولهوها، وإن كانت المبالغة قد اجتذبت الشاعر فى أبياته الثلاثة الأخيرة كما يبدو فيها .

وشعر الزمخشري فى الغزل كثير ويدل على افتتانه بجمال المرأة ، وليس فى تركه الزواج مايؤيد عكس ذلك ، فإنه لم ينح هذا المنحى بغضا فى النساء أو زهدا فى متع الدنيا .

وليس لدينا مايؤكد أن كل ماقاله فى الغزل تقليد ، بل إن لدينا مايرجح أن بعضه كان مرتبطا بواقعه ، وأعنى بذلك شعره الذى تغزل فيه بنساء الترك اللائى أصبحن ظاهرة من ظواهر المجتمع فى عصره ، وقد أعجبتة منهن العيون الضيقة بحورها وفتورها فأثرهن على ذوات العيون النجل ممن شبيب بهن الشعراء قبله ، فقال :

الأقل لسعدى مالنا فيك من وطرٍ وماتطبيننا النجل من أعين البقر

١- الديوان ٢٢٠ .

فإن العيون الضيقات وأهلها بهم علقت من الأضمار والفكر (١)
ولعل عبيد الله قد عرف ما فيه من ميل إلى هذا النوع من النساء فأهداه
وصيفة منهن كان فرحه بها عظيما ، ومما قاله شاكر المهدى ومشيبا بالهدية :

يا إذا السعادات كم أسديت عارفة إلى ، مهلاً فقد أكثرت حسادي
أروح منك على برٍّ وتكرمة وأغتندي بين إرفاق وإرفاد
أنجزت وعدى، وأهديت الوصيفة لي والحرُّ ليس له خلف لميعاد
وصيفة من بنات الترك واصفةً ظباءً وجرةً بالعينين والهادي
تسلُّ باللحظ سياتاكا ، فإذا همت بضحكٍ تولته بإغماد
رمانتا صدرها لم يبدُ حجمهما بلى بدالهما حجم بلا بادي
أزهي بها ، فأهز المنكبين كما تزهي بقدر كخوط البان ميا
نعماك روض ، وهذي ظبية سرحت فيه ، فيا حسن مرتاد ومرتاد
الآن أجعل تشببي بما ملكت يدي ، وأقعد من لهو بمرصاد (٢)

وليس غريبا على الزمخشري وهو في ميعة الشباب أن يعشق الجمال وأن
تكون له سويغات لهو ومرح، يتخفف فيها من جد الحياة وصرامتها ، ولكننا
لانسى أنه كان العالم الفاضل الذي يحافظ على خلقه ودينه ، فإن كان لهو فهو
اللهو الحلال الذي لا يجرح خلقا ولا يؤذي ديننا ، ولكنه التنعم بالحلال من طيبات
الحياة التي أتحت له في عهده، هذا الذي تنعم فيه بالدنيا كما قال صاحب مفتاح
السعادة .

الشيخ الزاهد :

والزمخشري يحدثنا عن هذا الطور الجديد في حياته ، فيذكر الأسباب التي
هيأت له ، وتاريخ بدايته ، والمعالم التي رسمها لحياته فيه، يأتي ذلك في معرض

(٢) الديوان ٢٢٣ - ٢٢٤ .

١ - الديوان ٩٠ .

حديثه عن سبب إنشائه المقامات . حيث يقول :

«والذى ندبه لإنشائها أنه أرى فى بعض إغفاءات الفجر كأنما صوتُ به من يقول له : ياأبا القاسم ، أجلّ مكتوب ، وأمل مَكذوب . فهب من إغفائه تلك مَشْخُوصاً به ممّا هاله من ذلك ورُوعه ، ونفَر طائره وفرّعه ، وضم إلى هذه الكلمات ما ارتفعت به مقامه ، وأنسها بأخوات قلائل ، ثم قطع لمراجعة الغفلة عن الحقائق ، وعادة الذهول عن الجدّ بالهزل ، فلما أصيب فى مستهل شهر الله الأصم^(١) الواقع فى سنة اثنتى عشرة بعد الخمسمائه بالمرضة الناهكة ، التى سماها المنذرة ، كانت سبب إنابته وفيئته ، وتغير حاله وهيئته ، وأخذ على نفسه الميثاق لله : إن من الله عليه بالصحة أن لا يظأ بأخمصه عتبة السلطان ، ولا واصل بخدمة السلطان أنياله ، وأن يربأ بنفسه ولسانه عن قرض الشعر فيهم ، ورفع العقيرة فى المدح بين أيديهم^(٢) ، وأن يعفّ عن ارتزاق عطياتهم ، وافتراس صلاتهم^(٣) ، مرسومًا وإدارًا وتسويفاً ونحوه ، ويجدّ فى إسقاط اسمه من الديوان ومحوه ، وأن يعنف نفسه حتى تقى ما استطعت فى ذلك فيما خلا لها فى سنى جاهليتها ، وتتقنّ بقرصيها وطمريها^(٤) ، وأن يعتصم بحبل الله ويتمسك ، ويتبتّل إلى ربه ويتنسك ، ويجعل مسكنه لنفسه محبسًا ، ويتخذها لها مخيساً^(٥) ولا يريم عن قراره مالم يضطره أمر ذو خير لا يجد الصالح بدا من تولّيه بخطوة ، وأن لا يدرس من العلوم التى هو بصدها إلا ما هو مهيب بدارسه إلى الهدى رادع له عن مشايعة الهوى»^(٦)

وشفى الزمخشري من مرضته ، وكان وفيًا إلى حد كبير بما عاهد عليه ربه ، فزهد فى الدنيا وأقبل على أمور دينه ، فكان من الورع وقيام الليل فى الرتبة

١- شهر الله الأصم : رجب ، كانوا يسمونه بذلك لأن السلاح لا يتقنع فيه ؛ لأنه من الأشهر الحرم .

٢- عَقَرَتْ رَجُلٌ رَجُلٌ فَرَفَعَهَا وَهُوَ يَصِيحُ ، فَضْرَبَ رَفْعَ الْعَقِيرَةِ مَثَلًا فِي التَّصْوِيتِ .

٣- افتراس العطاء : أخذه .

٤- الطمر : الثوب البالى

٥- المخيس : موضع التخيس وهو السجن .

٦- مقامات الزمخشري ٥-٧ .

العليا^(١) ، ووقف جهده على البحث في علوم الدين وتدريسها والتأليف فيها ،
واهتم بعلوم اللغة والنحو لأنها وسيلة لأبد منها لفهم علوم الدين .

لزم الزمخشري بيته أربع سنوات بعد شفائه ألف خلالها كتباً مهمةً، منها
المفصل والفائق في غريب الحديث .(٢)

ثم هفا قلبه إلى الأماكن المقدسة ، فأغذَّ السير إلى مكة مهاجراً إلى ربه ، عاقدا
العزم على أن يضرب قبته بفناء بيت الله ، وأن يقيم فيه حتى يحين أجله ،
مجاوراً لله ، باذلاً في طاعته أقصى الطاقة ، راجياً أن يقبل توبته ويغفر له
مأسلف من ذنوب ، الى غير ذلك مما تغنى به في قصيدته التي أنشدها في
طريق رحلته هذه والتي قال فيها :

سيري تماضر حيث شئت وحدّثي إننى إلى بطحاء مكة سائرٌ
حتى أنيخَ وبين أطمأري فتى للكعبة البيتِ الحرامِ مجاور
متعوذ بالركن ، يدعو ربه يشكو جرائر بعدهن جرائر^(٣)
وفيها يقول :

يامنُ يسافر في البلاد منقباً إننى إلى البلد الحرامِ مسافر
إن هاجر الإنسان عن أوطانه فالله أولى من إليه يهاجر^(٤)
ثم يقول :

في طاعة الجبار أبذل طاقتي فلعلنى فيها لكسرى جابر

١- مفتاح السعادة ٢/١٠٠ .

٢- خصائص العشرة الكرام البررة ، تقديم المحقق ص ١٢ . وفي مرآة الجنان ٣/٢٦٩ (وكان
شروعه في تأليف المفصل سنة ٥١٣ ، وفرغ منه في غرة المحرم أظنه قال سنة ٥١٥هـ) .
وفي كشف الظنون ٢/١٢١٧ أن الزمخشري أتم «الفائق في غريب الحديث» في شهر ربيع
الأخر سنة ٥١٦هـ .

٤- الديوان ٣١٤ .

٣- الديوان ٣١٤ .

سأروح بين وفود مكة وأفدا حتى إذا صدروا فما أنا صادر
 بفناء بيت الله أضرب قبتي حتى يحل بي الضريح القابر
 ألقى العصا بين الحطيم وزمزم لا يطبيني إخوة وعشائر
 ضيفاً لمولى لا يخل بضيفه ويذل^(١) أقصى ماتنى الزائر
 حسبي جوار الله ، حسبي وحده عن كل مفخرة يعد الفاخر
 ساقيم ثم وثم تدفن أعظمى ولسوف يبعثنى هناك الحاشر^(٢)
 وفى مكة التقى بالشريف على بن عيسى المعروف بابن وهاس ، وكان عالماً
 فاضلاً جواداً ممدحاً^(٣) ، فأحسن وفادته ، وأحاطه بكرمه ورعايته ، واعترف
 الزمخشري بفضلته فى مدائح كثيرة ، ومنها قوله فيه :

ومما أجل الصنيع فيه إناختي بمكة مرضياً مراداً ومورداً
 ولولا ابن وهاس وسابغ فضله رعيت هشيماً واستقيت مصرداً^(٤)
 ويقضى الزمخشري عامين فى مكة ثم يعاوده الحنين إلى وطنه وقومه ،
 فيترك مكة عائداً إلى خوارزم . وكان هذا جواره الأول الذى امتد عامين ، كما دل
 على ذلك ما قاله بعد عودته إلى خوارزم فى الشوق إلى مكة وإلى صديقه ابن
 وهاس :

ألا أبلغاً أم القـرى وقطينها تحية نفس ماتغب حنينها
 إلى أن قال :

متى ذكرت - والذكر يبتعث الأسى - بمكة عاميها أطالت أنينها^(٥)
 ويداعب الأمل فى المنصب والمال خيال الشاعر مرة ثانية ، فيعود إلى الاتصال

٢- ديوان الزمخشري ٣١٥ .

٤- الديوان ٢١ .

١- يزل : يسدى ويولم ، والزلة : الوليمة

٣- شرح القاموس (زمخشري)

٥- الديوان ٢٣ .

بالمملوك والوزراء وإن كان لم يكثر من ذلك ، فلم يتجاوز مدحه لهم فى هذه الفترة بضع قصائد .

فقد ارتحل إلى خراسان حيث مجير الدولة الأردستانى فمدحه بقصيدة ، ثم قدم إليه كتابه «الأنموذج»^(١) ، راجيا أن يطلع عليه يرضى عنه ويقتنع بكفاءته فيقلده منصبا فى دولته يقدح به زندا واريا من مناقبه، وفى ذلك يقول :

فليت رحالى ألقىتُ بفنائيه فأرتعَ فى نعمائه غير نازح
ويقدحَ زندا واريا من مناقبى إذا صلَدتُ كلُّ الزَّنَاد لقادح
وفى شرح أبيات الكتاب لبعض ما يرى فى صفاتي مجملا أى شارح
وأنموذجا أنفذت منه يضمه رجائى أرى فيه وجوه المناجع
أراقب من عين الوزير اطلاعة عليه ، وحسبى منه لحة لامع
فلو أنها كلت عن العيب ، وارتضت فما ضنَّ دهرى بالكريم المسامح
وألقيت قِدْحى فى قِداح فوائز وأجريتُ طيرى فى طيور سوانح
وَأَبْسْتُ من إنعامه حُلَّة لها محاسنُ ردتُ غيرها كالمقابح^(٢)
واتصل بالخوارزمشاه أتمسز^(٣) كما اتصل بتاج المملوك وابنه شمس المملوك
بدمشق ومدحهما .

ويخفق فى تحقيق أمله للمرة الثانية ، فلا يظفر بالمنصب الذى ينشده ، ويعاوده الحنين إلى مكة ، ويمضه ألم شديد لفراقها ، ويجرى على لسانه شعر كثير يعبر فيه عما يحسه من ندم شديد على تركها ، وشوق حار إلى العودة إليها، ومن ذلك قوله :

أبتاع بالفوز الشقاوة خاسرا وأستبدل الدنيا الدنيَّة بالأخرى

١- الأنموذج فى النحو اقتضبه من المفصل (كشف الظنون ١/١٨٥) وهذا ما يؤكد أن هذا الاتصال كان بعد عودته من مكة لأنه فرغ من المفصل قبيل سفره إليها .

٢- الديوان ٢٠ .

٣- وقد حرر باسمه نسخة من كتابه «مقدمة الأدب» لخزانة كتبه، انظر مقدمة الأدب ١-٣ وتاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان ٥/٢٢٩ .

إذا خطرت بالبال ذكرى إناختى
أكابد ليلا كالليالى وحسرة
وأدعو إلى السؤلوان قلبا جوابه
وماعذر مطروح بمكة رحله
فسافر عنها يبتغى بدلا لها

على حرم الله استفزتنى الذكرى
ودمعا غزير المستقى غائر المجرى
لداعيه مهراق من المقلة العبرى
على غير بؤس لايجوع ولايعرى
وربك لا عذرى وربك لا عذرى (١)

ويقول متمنيا أن يعود إليها فيشفع عاميه بأعوام يكمل بها سعادة نفسه :

بودى أن أغشى تهامة مقلقا
لأشفع أعواما بعامى مكمل
إلى الكعبة البيت الحرام وضيتها
سعادة نفس نفس الله حينها (٢)

وعاد الزمخشري إلى مكة ، وأقام فيها ثلاث سنوات ، هى مدة جواره الثانى ،
فتم له بذلك خمس سنوات بمكة مجاورا البيت الحرام ، ويسجل شعره ذلك
فيقول :

فجاورت ربى وهو خير مجاور
أتمت بإذن الله خمسا كواملا
لدى بيته البيت المحرم عاكفا
وصادفت سبعا بالمعرف واقفا (٣)
ويتفق هذا مع ما ذكر صاحب مفتاح السعادة من أنه «وقف بعرفات سبع مرات
وحط فى البلد الحرام خمس سنين» . (٤)

وأغلب الظن أن هذا الجوار الثانى كان بين سنتى ٥٢٦ هـ ، ٥٢٩ هـ ، ذلك
لأنه فى الطريق إلى مكة مدح تاج الملوك وابنه شمس الملوك بدمشق ، وقد توفى
الأب وخلفه الابن سنة ٥٢٦ هـ ، (٥) ولأنه فرغ من تأليف الكشاف بمكة سنة
٥٢٨ هـ وقد أتمه فى مقدار مدة خلافة أبى بكر رضى الله عنه ، وهى سنتان

١- الديوان ٢٦ .

٢- الديوان ٢٣ .

٣- الديوان ١٩٠ .

٤- مفتاح السعادة ٩٩/٢ .

٥- مرآة الجنان ٢١٥/٣ سنة ٢٥٦ هـ .

وعدة أشهر. (١)

وفى مكة لقي الزمخشري من حفاوة ابن وهاس وقومه ومناصرتهم له ما أشاد به كثيرا فى شعره ومنه :

بمكة آخيتُ الشريفَ وفتيةً تُوَالِيهِ مِنْ آلِ النَّبِيِّ غَطَارِفَا
وكنت عليهم من أعزّ نفوسهم أَعَزُّ وَكَلُّ كَانَ صِنُوا مُلَاطِفَا
لكلِّ موالٍ لى ولياً مناصحا لكلِّ مُعَادٍ لى عدوا مُكَاشِفَا

ثم يقول عن ابن وهاس :

على باب أجياد بنى لى منزلا كركن شمام بالصففا متواصفا
وأنفق فى إتمامه من تلاده ثقيلات وزن فى البلاد خفائفا(٢)

وكانت هذه الصلة الوطيدة بين ابن وهاس والزمخشري خيرا على العلم والأدب ، أنطقت الزمخشري بكثير من قصائد المدح الصادق ، ونشطته لتأليف كتابيه الكشف والحاجة بالمسائل النحوية اللذين أهداهما إلى صديقه ابن وهاس(٣) ، كما جمع شعره فى «ديوان الأدب» استجابة لرغبته .(٤)

نهاية المطاف :

ويتقدم الزمن بالزمخشري فتغمره موجة من الزهادة والقناعة فى كل شئ ، فى العلم والأدب والتدريس والتصنيف ، ويختار لنفسه «الطريقة الأويسية»(٥) فينقل كتبه إلى مشهد الإمام أبى حنيفة ويوقفها عليه ، ولم يبق معه إلا كتاب الله

١- انظر ربيع الأبرار ونصوص الأخبار ١٩/١ مقدمة المحقق، وانظر مقدمة الكشف للزمخشري .

٢- الديوان ١٩١ .

٣- انظر مجلة المجمع العلمى العراقى المجلد ٢٣ ص ١٥٧ .

٤- انظر مقدمة «الديوان» للزمخشري .

٥- الأويسية : نسبة إلى أويس القرنى ، كان من كبار الزهاد، يقال إنه قتل فى معركة صفين، وقبره بالرقعة، وعن أخباره فى زهده وتدينه انظر الطبقات الكبرى ١/٣٩ - ٣٠ ودائرة المعارف للبيستانى ٧٠١/٤ .

وقد وضع ذلك فى رده على استجازة الحافظ أبى طاهر السلفى إياه، حيث قال:

«وأما ما طلب عندى وخطب إلى من العلوم والدراسات ، والسماعات والروايات فبنات خلعت على تربيتهن الشباب ، ثم دفنتهن وحثوت عليهن التراب ، وذلك حين آثرت الطريقة الأويسية على بنيات الطرق ، وأخذت نفسى برفض الحجب والعوائق، ونقلت كتبى كلها إلى مشهد أبى حنيفة رحمه الله ، فوقفتها ، وأصفرت منها يدى إلا دفترًا واحدًا قد تركته تميمة فى عضدى وهو كتاب الله المبين ، والحبل المتين والصراط المستقيم ، لأهب لما قعدت بصدده كلى ، وألقى عليه وحده كلى ، ولا يشغلنى عنه بعض ما يجعل الرأس مشتركًا ، ويرد القلب مقتسما ، ولذتُ بحرم الله المعظم ، وبيته المحرم ، وطلقت ما وزرنى بتًا ، وكففت ذلى عنه كفتًا، ما بى هم إلا خوِّصتى ، وما يلهينى إلا النظر فى قصتى، أنتظر داعى الله صباح مساء(١) ،

ومن شعره الذى قاله فى ذلك :

ووفقتنى حتى وقفنت نفائسى وأعلاق أسفارى فأبرحت واقفا
على مشهد النعمان نورَ قبره كما نورَ الإسلامَ يالك سالفاً(٢)

ويعاوده الحنين إلى وطنه ، فيرجع إليه ، كبير السن ، واهن القوى، ينتظر داعى الله الذى لم يلبث أن وافاه ، وكانت وفاته رحمه الله بقصبة خوارزم سنة ثمان وثلاثين وخمسائة من الهجرة . (الرابع عشر من يونيو سنة أربع وأربعين ومائة وألف من الميلاد)(٣)



١- ازهار الرياض ٣/٢٨٤-٢٨٥ .

٢- الديوان ١٩٣ .

٣- انظر : معجم الأدباء ١٩/١٢٩ ونزهة الأدباء ٤٧٢ ، والأنساب ورقة ٢٧٧ وإنباه الرواة

٢٦٧/٣ ولسان الميزان ٤/٦ ودائرة المعارف للبيستانى ٢٤٦/٩ وتاريخ الألب العربى لكارل

بروكلمان ٢١٥/٥ .

الفصل الثالث

فى حقل العلم وروضة الأدب

عاش الزمخشري حياة علمية أدبية خصبة ، يدرس العلم والأدب ، ويعلمهما ،
ويصنف ويؤلف فيهما ، لا يشغله عن ذلك منصب ولأزوجة ولا ولد .
أساتذته :

والمراجع تذكر لنا العديد من أئمة العلم والأدب الذين تتلمذ عليهم الزمخشري
كل فى فنه الذى نبغ فيه .(١)

فقد أخذ الأدب عن أبى على الحسن بن المظفر النيسابورى(٢) ، وأبى مضر
الأصفهانى ، ودرس الفقه على الشيخ السديد الخياطى ، وسمع من أبى سعد
الشقانى ، وشيخ الإسلام أبى منصور الحارثى وجماعة .(٣)

والجدير بالذكر أن الزمخشري لم يتوقف عن طلب العلم طيلة حياته ، فلم ير
غضاضة فى أن يجلس إلى أبى بكر عبد الله بن طلحة اليابرى(٤) قارئاً عليه كتاب
سيبويه ، وكان ذلك بمكة ،(٥) فإذا علمنا أن الزمخشري ذهب إلى مكة فى المرة
الأولى سنة ٥١٦ هـ وأقام فيها عامين تبين لنا أن الزمخشري حين جلس إلى هذا
العالم كان قد شارف الخمسين سنة ، إن لم يكن بلغها أو تجاوزها ، وكان حينئذ
عالماً ملء السمع والبصر لاسيما فى النحو الذى كان قد ألف فيه كتابه «المفصل»

-
- ١- انظر الزمخشري د. أحمد الحوفى ٤٨-٥١ ، ففيه فصل خاص بأساتذته .
 - ٢- كاتب شاعر مؤلف ، كان فى عصره مؤدب أهل خوارزم ومخرجهم وشاعرهم ومقدمهم ،
وهو شيخ الزمخشري قبل أبى مضر ، وله مؤلفات منها: تهذيب ديوان الأدب ، وتهذيب
إصلاح المنطق ، وديوان شعر ، وديوان رسائل ، انظر معجم الأدباء ٩/١٩٠ .
 - ٣- انظر معجم الأدباء ١٩/١٢٧ ، ومفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم
٩٧/٢ ، وبغية الوعاة ٣/٣٨٨ ، والطبقات السننية فى تراجم الحنفية ٤/١٢٥ .
 - ٤- نحوى أصولى فقيه توفى سنة ٥١٨ هـ انظر: بغية الوعاة ٢٨٤ .
 - ٥- ازهار الرياض ٣/٧٦ ، ٧٧ .

قبل هذا الوقت. (١)

بل إن صاحب إنباه الرواة يقول عنه: «قدم علينا بغداد سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة، ورأيتُه عند شيخنا أبي منصور الجوالقي (٢) رحمه الله مرتين، قارئاً عليه بعض كتب اللغة من فواتحها مستجيزاً لها» (٣)

ولعل أستاذه أبا مضر محمود بن جرير الضبي الأصفهاني المتوفى سنة ٧٠٥ هـ (٤) كان أكثر أساتذته تأثيراً فيه، فقد أتى هذا العالم إلى خوارزم وكان له من العلم والخلق ما جعله يؤثر في أهل خوارزم ومن بينهم الزمخشري تأثيراً بالغاً، وياقوت يحدثنا عنه وعن أثره في أهل خوارزم فيقول في الترجمة له: «كان يلقب فريد العصر، وكان وحيد دهره وأوانه في علم اللغة والنحو والطب، يضرب به المثل في أنواع الفضائل، وأقام بخوارزم مدة، وانتفع الناس بعلمه ومكارم أخلاقه، وأخذوا عنه علماً كثيراً، وتخرج عليه جماعة من الأكابر في اللغة والنحو منهم الزمخشري، وهو الذي أدخل على خوارزم مذهب المعتزلة ونشره بها، فاجتمع عليه الخلق لجلالته، وتمذهبوا بمذهبه، منهم أبو القاسم الزمخشري» (٥).

وشعر الزمخشري في أستاذه هذا مدحا وثناء يعكس هذه الصلة الوثيقة التي ربطت بين التلميذ وأستاذه، فهو لا يذكر له علمه وأدبه فقط، بل يعترف له بأفضاله التي غمره بها، فقد رعاه بماله وجاهه، ووقف بجانبه يشد من عزمه ويدفع عنه غوائل الأيام ومحن الزمان، ومن ذلك ما قاله في شكواه إلى نظام الملك:

١- إنباه الرواة ٣/٢٦٩.

٢- أبو منصور الجوالقي كان إماماً في فنون الأدب، من مفاخر بغداد، درس الأدب في المدرسة النظامية، توفي ٥٢٩ هـ، معجم الأدباء ١٩/٢٠٥، وبغية الوعاة ٤٠١.

٣- انظر: إنباه الرواة على إنباه النحاة ٣/٢٦٩.

٤- معجم الأدباء ١٩/١٢٣ - ١٢٤.

٥- المرجع السابق.

إليك نظامَ الملك شكواى فاستمع
 طريحِ خُطوبٍ كلِّ يوم تنوبه
 ولو لم يبل الضبُّ عني عراكها
 فلا عجب أن اشتد حزنه عليه حين مات ، فرثاه بقصيدة طويلة منها :

فقلت لطبعي هات كلَّ ذخيرة
 وأبرزُ كريماتِ القوافي وعرُّها
 فممنه استفدنا العلم والنظم والنثر(٢)

مؤلفاته :

يقول الزمخشري مفتخرا بما ألف في العلم والأدب :

ونشرُ من أفوافِ كُتُبٍ وشيئُها
 تَطِنُ بها الأفاقُ حتى كأنما
 غرستُ بها دوحا من العلم مالنا
 كأن ثُبَاتِ الآخذين علومها
 تلقِيكَ حلما أو تفيدُك حكمةً
 كأنك إن ألقىتَ نَهْنا مُجالسُ

بأيدي النُهَى في الخافِقِينَ زخارفا
 أهبَّ بها الله الرياحَ العواصفا
 يدى كلِّ جان وهو دان مقاطفا
 جناةُ نخيل يقطفون المخارفا
 إذا طالعت عيناك تلك الصحائفَا
 أكاثمَ عقَّادى الحُبى وأحانفا(٣)

هذه الكتب التي يشيد بها الزمخشري في أبياته هي مؤلفاته التي تركها لنا في مختلف فروع العلم والأدب ، عاش لها كل حياته ، وأعطاهما كل حبه حتى شغل بها عن الزوج والولد ، واتخذ منها بنين وبنات اعترز بما بلغته من استواء الشباب واستيفاء العقل ، وأشاد بنفاستها وفضلها ، وتاه بها على ذوى الأبناء من الصلب ، وكان لا يفتأ يناجئها بمثل قوله :

٢- الديوان ١٨٨ - ١٨٩ .

١- ديوان الزمخشري ٥٣ .

٢- الديوان ١٠٨ .

واستوفوا العقل والكياسة
في ذروة العز والرياسة
حصانهم أمة الدراسة
وصفن بالفضل والنفاسة^(١)

أيا بنين استووا شبابا
قروا بعينيك حين قروا
بنى فاعلم بنات فكري
أبناء صدق لهم نفوس

وقد ذكرت المراجع له نحو خمسين مؤلفا ، وكثر فيها الإشادة بها ، والتنويه بتعدد مياديينها ، وكثرة فنونها^(٢) ، ومن ذلك مقاله صاحب مرآة الجنان من أن الزمخشري «له التصانيف البديعة الكثيرة المدوحة الشهيرة ، عد بعضهم منها نحو ثلاثين مصنفا فى التفسير والحديث والرواية وعلم الفرائض والنحو والفقه واللغة والأمثال والأصول والعروض والشعر»^(٣) ، ولست بصدد تتبع مناسب للزمخشري من مؤلفات طبع بعضها ، وبعضها مازال مخطوطا ، وبعضها لانعرف عنه إلا اسمه ، فكثرة المراجع التى فصلت الحديث عن هذه المؤلفات تجعل من هذا الصنيع هنا تطويلا لامبرر له ، وحسبى هنا أن أعرف بأهم آثاره العلمية والأدبية ، وأذكر منها مايشهد برسوخ قدمه وعلو كعبه فى ميدانى العلم والأدب بفروعهما المختلفة .

أ- آثاره العلمية:

كثيرة متنوعة فى العديد من فروع العلم منها :

فى التفسير «الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل» وهو موسوعة فى التفسير حافلة بموضوعات كثيرة فى الاعتزال واللغة

١- الديوان ٢٦٤ .

٢- عن مؤلفاته انظر : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون (انظر فهرسته) ، ومفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم ٩٨/٢ والطبقات السنوية ١٣٢/٤ ، ومعجم الأدباء ١٩/١٣٣ - ١٣٥ وتاريخ الأدب العربى لكارل بركلمان ٥/٢١٦ - ٢٣٩ وتاريخ آداب اللغة العربية ٣/٤٩ والزمخشري للدكتور أحمد الحوفى ٥٦-٤٣ فى فصل خاص بها ذكر له فيه سبعة وأربعين مؤلفا .

٣- مرآة الجنان ٣/٢٦٩ .

والنحو والبلاغة والأدب والفقه والقراءات وما يتصل بها من تعليل وتمحيص (١).

ومن ذلك أنه يستهل تفسيره لسورة «القيامة» بمسألة نحوية طريفة وهي إدخال «لا النافية» على فعل القسم فى قوله تعالى : «لا أقسم بيوم القيامة» ، ويفصل القول فيها فيقول : «إدخال لا النافية على فعل القسم مستفيض فى كلامهم وأشعارهم ، قال امرؤ القيس :

لا وأبيك ابنة العامرى لا يدعى القوم أنى أفر

وقال غوية بن سلمى :

الا نادت أمامة باحتمال لتحزننى فلايك ما أبالى

وفائدتها توكيد القسم ، وقالوا : إنها صلة مثلها فى «لئلا يعلم أهل الكتاب» وفى قوله «فى بئر لاحور سرى وماشعر» واعترضوا عليه بأنها إنما تزداد فى وسط الكلام لافى أوله ، وأجابوا بأن القرآن فى حكم سورة واحدة متصل ببعضه ببعض ، والاعتراض صحيح ، لأنها لم تقع مزيدة إلا فى وسط الكلام ، ولكن الجواب غير سديد ، ألا ترى إلى امرئ القيس كيف زادها فى مستهل قصيدته ، والوجه أن يقال هى للنفى والمعنى فى ذلك أنه لا يقسم بالشئ إلا إعظاما له بذلك وعليه قوله تعالى : «فلا أقسم بمواقع النجوم. وإنه لقسم لو تعلمون عظيم» فكأنه بإدخال حرف النفى يقول : إن إعظامى له بإقسامى عليه كلا إعظام ، يعنى أنه يستأهل فوق ذلك ، وقيل إن «لا» نفى لكلام ورد له قبل القسم كأنهم أنكروا البعث فقيل : لا ، أى ليس الأمر على ما ذكرتم ، ثم قيل : أقسم بيوم القيامة ، فإن قلت : قوله تعالى : «فلا وربك لا يؤمنون» والأبيات التى أنشدتها المقسم عليه فيها منفى فهلا زعمت أن «لا» التى قبل القسم زيدت موطئة للنفى بعده ومؤكدة له ، وقدرت المقسم عليه المحذوف ههنا منفيا لقولك : لا أقسم بيوم القيامة لاتركون سدى؟ قلت : لو قصر الأمر على النفى دون الإثبات لكان لهذا القول مساغ ولكنه لم يقصر ألا ترى كيف لقى لا أقسم بهذا البلد بقوله لقد خلقنا الانسان ، وكذلك

فلا أقسم بمواقع النجوم بقوله إنه لقرآن كريم، وقرئ لأقسم، على أن اللام للابتداء وأقسم خبر مبتدأ محذوف معناه لأننا أقسم ، قالوا : ويعضده أنه في الإمام بغير ألف (١) .

وهكذا لا يترك هذه المسألة النحوية اللغوية الدقيقة حتى يوفيهما حقها بما ينم عن عمق ثقافته وجزارتها ، ويشهد بقيمة كتابه التي لم تتوقف عند التفسير وإنما ضمت مباحث في علوم عديدة تفيد كل من يتعرض لها بالدراسة . ولولا خشية الإطالة لذكرت أمثلة عديدة لذلك (٢) .

فلا غرو أن كثرت إشادة الزمخشري بكشافه مفتخرا به في شعره ، ومما قاله فيه :

وناهيك بالكشافِ كنزا نضاره
وتخفقُ أوراقُ المصاحفِ هزةً
فما في بلاد الشرق والغرب ناقدٌ
وليتهمُ بالغوص بعد إطالة
أبي صاحب الكشاف إلا إصابةً
وقال أيضا :

يعلمُ تمييز الجياد الصيارفا
لزهر معان يزدهين المصاحفا
يقلبها دهرا فيخرج زائفا
لفكرهم يدرون تلك اللطائفا
لما ارتد عنه صاحب النبل صائفا (٣)

إن التفاسير في الدنيا بلا عدد
إن كنت تبغى الهدى فالزم قراءته
وليس فيها لعمرى مثل كشافى
فالجهد كالداء والكشاف كالشافي (٤)

١- الكشاف ١٦٣/٤ .

٢- انظر «الزمخشري» ١٠٨ - ٢٤٤ فقد قدم الأستاذ الدكتور أحمد الحوفي فيه دراسة دقيقة مفصلة شاملة عن الكشاف وأهم مباحثه ، وهي دراسة تبين قيمة هذا الكتاب العظيم ، وجزارة علم صاحبه وتنوع ثقافته رحمه الله .

٣- الديوان ١٨٩ .

٤- معجم الأدباء ١٢٩/١٩ وملحق الديوان .

وقد ترك الكتاب أثرا كبيرا فى الأساطير العلمية ، وعنى الأئمة به بين شارح ومحسن ومادح وناقد ومختصر وملخص ، وطبع مرارا فى الهند ومصر ، ومع بعض الطبعات جزء فى تفسير شواهدہ (١)

وفى الحديث :

ألف كتابه «الفائق فى غريب الحديث» وهو مطبوع فى ثلاثة مجلدات بتحقيق الأستاذين على البجاوى ومحمد أبو الفضل إبراهيم .

قال عنه ابن الأثير «جاء الزمخشري فصنف كتابه سنة ٥١٦ هـ ، وسماه الفائق ، ولقد صادف هذا الاسم مسمى ، وكشف عن غريب الحديث كل معنى ، ورتبه على وضع اختاره مقضى على حروف المعجم» (٢)

وفى علوم الدين :

أ- المنهاج فى أصول الدين

وتوجد منه نسخة خطية فى مكتبة برلين برقم ٥ ، ٦ . (٣)

ب- رسالة فى كلمة الشهادة.

فى المجلد الخامس عشر من مجلة المجمع العلمى العراقى لسنة ١٩٦٧ م .

وفى الفقه :

أ- الرائض فى الفرائض (٤) .

ب- رؤوس المسائل فى الفقه (٥) . وتوجد منه نسخة فى مكتبة جسر بيتى

برقم ٣٦٠٠ (٦) .

١- تاريخ آداب اللغة العربية ٤٩/٣ ، وانظر فيما الف حوله كشف الظنون مادة كشف ، وتاريخ

الأدب العربى لبروكلمان ٢١٧/٥-٢٢٤ .

٢- النهاية فى غريب الحديث مقدمة الكتاب .

٣- ربيع الأبرار . مقدمة المحقق ١٤ .

٤- بغية الوعاة ٢٨٨ .

٥- الزمخشري ٥٨ .

٦- ربيع الأبرار ، مقدمة المحقق ١٤ .

ج- معجم الحدود^(١) .

وفى النحو:

١- المفصل

ألفه بين سنتي ٥١٣ ، ٥١٥ هـ ، يقول عنه بروكلمان: إنه صار عمدة فى النحو بأسلوبه المحكم الواضح^(٢) ، وقد جعله على أربعة أقسام فى الأسماء والأفعال والحروف والمشتراك من أحوالها ، وبلغ من تعظيم قدره أن شرط الملك المعظم عيسى الأيوبي لمن يحفظه مائة دينار وخلعة^(٣) ، وقد ترجم إلى الألمانية وطبع طبعات كثيرة منها طبعته مع شرح ابن يعيش فى عشرة أجزاء .

ب- الأنموذج

وهو مختصر عن المفصل (مطبوع)

ج- شرح أبيات كتاب سيبويه ، وتوجد منه نسخة خطية فى مكتبة أحمد الثالث فى إستانبول وهى فى إحدى عشرة ورقة ومائة ورقة^(٤) .
وقد ذكره هو والأنموذج فى شعره متقدما بهما إلى مجير الدولة ، وذلك حيث يقول :

وفى شرح أبيات الكتاب لبعض ما يرى فى صفاتي مجعلا أى شارح
وأنموذجا أنفذت منه يضمه رجائى أرى فيه وجوه المناجح^(٥)

د- الحاجة ومتم مهام أرباب الحاجات فى الأحاجى والأغلوطات ، أو الحاجة بالمسائل النحوية، على اختلاف بين المراجع فى اسمه ، ألفه الزمخشري بعد

١- الزمخشري ٥٨ .

٢- تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢٢٤/٥ .

٣- تاريخ آداب اللغة العربية ٤٩/٣ .

٤- ربيع الأبرار ، مقدمة المحقق ٢٤ .

٥- الديوان ٦١ .

تأليفه للكشاف وأهداه إلى أمير مكة عليّ بن وهّاس وقد طبع ببغداد سنة ١٩٧٣
(م) (١)

وهو الغاز ومسائل نحوية يقصد بها المعاياة والأفاكية (٢) .

وفى اللغة:

أ- أساس البلاغة

وهو معجم فى اللغة العربية لامثيل له فى طريقته (٣) ، رتبه على حسب الحرف الأول ومايليه من حروف الهجاء، وكان رائدا فى هذا الترتيب الدقيق السهل، وهو يمتاز عن غيره بذكر الاستعمالات المجازية للكلمة فى مواضعها من الجمل، إلى جانب معناها الحقيقى، ولذا زخر بأبيات الشعر، والعبارات الأدبية لتوضيح معانى الكلمات فى استعمالاتها المختلفة ، وقد طبع أكثر من مرة .

ب- الجبال والأمكنة والمياه

وهو كالمعجم الجغرافى يذكر فيه أسماء البقاع المشهورة فى أشعار العرب (مطبوع) (٤)

ج- مقدمة الأدب

وهو معجم عربى فارسى ، واكمل فيما بعد بجزء تركى ألفه لأبى المظفر اتسز بن خوارزمشاه (٥) ، طبع أكثر من مرة، كما ترجم إلى التركية (٦) .

وفى البلاغة

١- الدر الدائر المنتخب، من كتابات واستعارات وتشبيهات العرب .

١- ربيع الأبرار مقدمة المحقق ٢٤ .

٢- الزمخشرى ٦١ .

٣- تاريخ آداب اللغة العربية ٤٩/٣ .

٤- تاريخ آداب اللغة العربية ٤٩/٣ ، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢٣١/٥ .

٥- المرجع السابق ٢٢٩/٥ - ٢٣٠ .

٦- ربيع الأبرار مقدمة المحقق ٢٢ .

وقد نشر فى المجلد السادس عشر من مجلة المجمع العلمى العراقى .

٢- رسالة فى المجاز والاستعارة .(١)

وفى العروض:

القسطاس فى العروض، وقد طبع فى مطبعة النعمان فى النجف سنة

١٩٧٠هـ (٢)

وفى المنطق:

١- كتاب عقل الكل

ب- كتاب الأجناس(٣)

هذه أهم آثار الزمخشري فى فروع العلم المختلفة، وحق له أن يفتخر بعلمه الواسع وثقافته المتنوعة فى شعره معددا هذه الميادين العلمية التى نبغ فى كل منها على تشعبها، ومن ذلك قوله :

وما أنا فى علم الأحاديثِ راسفا	ترانى فى علم المنزّل عالما
ويبغى كتابُ الله منى المعارفا	فَلِلْسَنَةِ البِيضَاءِ فى مَنَاجِحٍ
بأحسن حلّى لم يزل لى شائفا	وما أنا من علم الديانات عاطلا
وكم قد وعت أذنائى منه وظائفا	فكم قد وحت يمنائى منه دفاترا
أبىَ كلُّ ندبٍ مُتَّقِنٍ أن يخالفا	ومالغات العرب مثلى مقومٌ
وليس كعمرو فى الرماية ثاقفا	وليس لتثقيف الرماح كسمهر
وأنفى أشاباتِ سُدَى ولفائفا	أقيد عندى سرّها وصميمها

١- تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢٢٨/٥ .

٢- ربيع الأبرار مقدمة المحقق ٢٢ .

٣- الزمخشري ٦٢ وعقب عليهما المؤلف الدكتور أحمد الحوفى بقوله «وربما كان الكتابان فى المنطق» .

وبى يستعيزُ النحوُ من أن يسوسَه نُهَى لم يجدها الذائقون حصائفا
فقل : أين خلى سيبويه كتابه ؟ يقل حجرُ جارِ الله ماواى حالفا
وعلما المعانى والبيان كلاهما أذف إلى الخطاب منه وصائفا
وعلمُ القوافى والأعاريضِ شاهدُ بفسحة خطوى فيه إذ كنت زاحفا(١)
والجدير بالذكر أنه ألف معظم كتبه فى الشطر الثانى من حياته، بعد أن زهد
وتنسك وأصبح يقصد وجه الله وخدمة الدين بكل أعماله .

فلا عجب أن وضحت فيها العاطفة الدينية، لانستثنى من ذلك مؤلفاته فى
النحو واللغة، فقد ألف فيهما بدافع دينى لعلمه بحاجة دارس القرآن وإعجازه الى
الإلمام بالعربية، كما وضع ذلك فى مقدمته لكتابه المفصل .
ب- آثاره الأدبية:

وإذا كان الزمخشري قد عرف فى الأوساط العلمية عالماً فاضلاً فى التفسير ،
وأستاذاً متبحراً فى النحو ، وإماماً فذاً فى اللغة ، لِماله فى هذه التخصصات من
آثار تشهد ببراعته وطول باعه فى كل منها على حدة ، فإن مكانته الأدبية لاتقل
عن هذه المكانة العلمية .

وآثاره فى ميدان الأدب- بكثرتها وتنوعها وجودتها - تجعله من رجال الأدب
البارزين فى تاريخ أدبنا العربى .

عشق الزمخشري الأدب منذ حداثة سنه، فأكب على كتبه يقرأ ويدرس، وتعى
ذاكرته الكثير منه حتى وجدناه فى مقتبل حياته يؤلف كتابه «المستقصى فى
أمثال العرب»(٢) ويحوى بين دفتيه واحدا وستين وأربعمائه وثلاثة آلاف مثل
عربى ، مع شروحاتها وذكر مواردها، وما أحسب أن هذا العمل الضخم قد تهيأ له

١- الديوان ١٨٧ .

٢- معجم للأمثال العربية مرتب على حروف الهجاء حسب أوائل الأمثال ، فرغ من تأليفه فى
شهر رمضان سنة تسع وتسعين وأربعمائه للهجرة (ربيع الأبرار ، مقدمة المحقق ٢٣) طبع
بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد الدكن سنة ١٢٨١ هـ من جزأين .

إلا بعد مطالعات واسعة واستيعاب واع لما أنتجته قرائح الأدباء قبله .

وكتابه «ربيع الأبرار ونصوص الأخبار» كتاب ضخم يقع فى أربعة مجلدات صنفه بعد كتابه الكشاف الذى فرغ منه بمكة المكرمة سنة ٥٢٨ هـ ، وقال عنه فى مقدمته : «هذا كتاب قصدت به إجمام خواطر الناظرين فى الكشاف عن حقائق التنزيل ، وترويح قلوبهم المتعبة فى إجمالة الفكر فى استخراج ودائع علمه وخبائاه ، والتنفيث عن أذهانهم المكدودة باستيضاح غوامضه وخبائاه ، وأن تكون مطالعته ترفيها لمن مل ، والنظر فيه إحماسا لمن اختل .

فاخرجته لهم روضة مزهرة ، وحديقة مثمرة ، متبرجة بزخارفها ، مياسة برفارفها ، تمتع برابع زهرها وتلهى ببيان ثمرها ، وتقر العيون بأنق مرآها ، وتغعم الأنوف بعبيق ريارها ، وتلذذ الأفواه بطيب جناها ، وتستنصت الأذان إلى خرير مائها الفياض . وتطبى النفوس إلى برد ظلها الفضااض ، وتميل الأعطاف بغصونها الأماليد ، وطيورها المستملحة الأغاريد ، نزهة المستأنس ، ونهزة المقتبس ، من خلا به استغنى عن كل جليس ، ومن أنس به سلا عن كل أنيس ، أين من طيب ندامه نديما مالك وعقيل ، وأين من در غزله كثير عزة وجميل ؟

إن أردت السمر فياله من سمير ، وإن طلبت الخبر سقطت على خبير ، وإن بغيت العظات المبكية ففيه مايشرق بالدمع أجفانك ، أو الملح المضحكة ففيه مايفر بضاحكه أسنانك» (١)

وقد رتب الزمخشريّ الكتاب على اثنين وتسعين بابا(٢) ، يذكر فى كل باب ما قيل فيه ، ومايتصل به من أقوال الحكماء والأدباء ، فنجده مثلا يقول: «باب الجوابات المسكّنة ورشاقات اللسان ومايجرى من الاستدراك والاعتراض والتبكييت والممارة واللجاج والجدل» ثم يذكر كل مايتصل بذلك من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأقوال الصحابة والتابعين والزهاد والنسك ،

١- ربيع الأبرار ٢٧ مقدمة المحقق .

٢- المصدر السابق ٢٧ .

وحكماء العرب وغيرهم ، ويذكر مايناسبه من الشعر إن وجد شعر فى معناه.(١)

وهذه نماذج مما ذكره فى هذا الباب :

١- قال النبى صلى الله عليه وسلم :لايعدى شئ شينا ، فقال أعرابى :
يارسول الله إن النقبة تكون بمشفر البعير أو بذنبه فى الإبل العظيمة
فتجرب كلها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فما أجرب
الأول؟(٢)

٢- على رضى الله عنه : قال له يهودى : مادفنتم نبيكم حتى اختلفتم فقال
له : إنما اختلفنا عنه لافيه ، ولكنكم ماجفت أرجلكم من البحر حتى قلت
لنبيكم اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة .(٣)

٣- قال رجل لجعفر بن محمد : ما الدليل على الله ؟ ولاتذكر لى العالم
والعرض والجوهر ، فقال له : هل ركبت البحر ؟ قال : نعم . قال : هل
عصفت بكم الريح حتى خفتم الغرق ؟ قال : نعم ، قال : فهل انقطع رجاؤك
من المركب والملاحين ؟ قال نعم ، قال : فهل تتبعن نفسك أن تمَّ من ينجيك ؟
قال : نعم ، قال : فإن ذلك هو الله : قال الله تعالى : «ضل من تدعون إلا إياه» .
«وإذا مسكم الضر فإليه تجأرون» .(٤)

٤- قال أبو العتاهية لابن منذر : كم تقول فى اليوم من الشعر ؟ قال الخمسة
أو الثلاثة ، فقال أبو العتاهية : لكنى أقول المائة والمائتين ، فقال ابن منذر : أجل
إنك تقول :

ياليتنى لــــم أرك

ياعتب مالى ولك

وأنا أقول :

١- المصدر السابق ٦٦٢ - ٧٢٥ .

٢- المصدر السابق ٦٦٢ .

٣- المصدر السابق .

٤- المرجع السابق ٣٦٢ .

ستُظلم بغداد وتجلو لنا الدجى
إذا نزلوا بطحاء مكة أشرق
وما خلقت إلا لجلود أكفهم
ولو أردت مثله لطال عليك الدهر. (١)

بمكة ما عشنا ثلاثة أقر
بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفر
وأقدامهم إلا لأعواد منبر

والكتاب بصورته هذه ينطق بما كان للزمخشري من ثقافة عريضة ، ودراية واعية بأداب العرب وغيرهم من الأمم .

بل إن ثقافته الأدبية لتطالعنا حتى في مؤلفاته العلمية ، نجدها ترفده في إسماع ويسر بما تزدان به كتبه من أبيات شعرية أو أمثال سائرة ، وكتابه «أساس البلاغة» زاخر بهذه الروائع الأدبية .

ولم تقف جهود الزمخشري الأدبية عندما تركه السابقون من أدباء العرب وغيرهم يقرؤه ويعي الكثير منه ، ويصنف فيه ، بل كان له إنتاجه الأدبي الخاص به في ميدانى النثر والشعر .

أما فى النثر:

فإن المراجع تذكر له كثيرا من المؤلفات فيه ، وبين أيدينا من مؤلفاته النثرية المطبوعة .

١- نوابغ الكلم أو الكلم النوابغ

وهى حكم قصار متوالية موجزة ، مسجوعة ، لا يجمعها موضوع أو فكرة ، طبعت أكثر من مرة كما ترجمت إلى اللاتينية والفرنسية (٢) . ومن ذلك ما قام به صلاح الدين البستاني من تحقيقها وضبطها ووضعها فى ذيل كتاب «أمثال الشرق والغرب» ١٩٨ - ٢٢٤ وتضم ٣١١ كلمة .

ومما كتبه الزمخشري فى مقدمتها : اللهم إن ما منحتنى من النعم السوابغ

٢- ربيع الأبرار ، مقدمة المحقق ٢٢ .

١- المرجع السابق ٢٨٥ - ٦٨٦ .

إلهام هذه الكلم النوابغ ،ناطقة بكل زاجرة وموعظة ، وحاشة على عبرة موقظة ،
كأنى ألقن بها حكمة لقمان ، وأصف بها مجلة آصف بن سليمان .(١)

وهذه نماذج منها :

١- أنت من النسوة من اتخذ النسوة أسوة .

٢- الأئمة الجلة الحنفية أزمة الملة الحنيفية .

٣- الأب أعرف وأشرف والأم أرام وأراف .

٤- أترك مالا يبقيه عليك وارثه ، ويبقى عليك كوارثه .(٢)

ومنها كذلك :

٥٣- إن فوات الوفاة أشد على الحر من الوفاة .

٥٤- اعلم بأن المستحيل ثلاثة : الغول والعنقاء والخيل الوفى .

٥٥- إن لم تملك فضل لسانك ملكت الشيطان فضل عنانك .

٥٦- إن واليت قرين السوء أعداك بدائه ، فكن من أعدائه تنج من أعدائه .(٣)

ب- المقامات وشرحها :

وقد بين الزمخشري سبب إنشائها وتاريخه والغرض منها فى خطبته التى قدمها بين يديها ، ومما قاله فى ذلك : «هذه مقامات أنشأها الإمام فخر خوارزم أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، والذى ندبه لإنشائها أنه أرى فى بعض إغفاءات الفجر كأنما صوت به من يقول له : «ياأبا القاسم أجل مكتوب وأمل مكذوب ، فهب من إغفاءاته تلك مشخوصا به - مما هاله من ذلك وروعه ، ونفر طائره وفرزعه ، وضم إلى هذه الكلمات ما ارتفعت به مقامه وآنسها بأخوات قلائل ، ثم قطع لمراجعة الغفلة عن الحقائق ، وعادة الذهول عن الجد بالهزل ، فلما أصيب

١- أمثال الشرق والغرب ومعه نوابغ الكلم ١٩٨ . آصف : كاتب سليمان صلوات الله عليه ،

دعا بالاسم الأعظم فرأى سليمان العرش مستقرا عنده . القاموس المحيط (آصف) .

٢- المصدر السابق ٢٠٢ .

٣- المصدر السابق ١٩٨ .

فى مستهل شهر الله الأصم ، الواقع فى سنة اثنتى عشرة بعد الخمسمائة بالمرضة الناهكة التى سماها المنذرة، كانت سبب إنابته وفئته وتغير حاله وهئته، وأخذه على نفسه الميثاق لله إن من عليه بالصحة أن لا يظأ بأخمصه عتبه السلطان، وأن يعتصم بحبل الله ويتمسك ، ويتبتل إلى ربه ويتنسك. وحين أتاح الله له الصحة التى لا يطاق شكرها انتدب للرجوع إلى رئاسة عمله فى إنشاء المقامات، حتى تمها خمسين مقامة يعظ فيها نفسه ، وينهاها أن تركز إلى ديدنها الأول، ولم يأتل فيما يعود على مقتبسها بجليل النفع وعظيم الجدوى ، فى بابى العلم والتقوى ، من انتقاء ألفاظها ، وإحكام أسجاعها ، وتفويف نسجها ، وإبداع نظمها ، وإيداعها المعانى التى تزيد المستبصر فى دين الله استبصارا، والمعتبر من أولى الألباب اعتبارا. (١)

فهى كما ذكر تضم خمسين مقامة بدأها قبل مرضته الناهكة فى سنة ٣١٢هـ وأتمها بعد شفائه منها ، يعظ فيها نفسه، ويبدأ كل مقامة بقوله «ياأبا القاسم» وهى كنيته ، وجعل لكل مقامة اسما، مثل «مقامة الراشد» و «مقامة التقوى» و«مقامة الرضوان» و «مقامة الارعواء» و «مقامة العروض» و «مقامة القوافى» . وقد يختم بعضها بأبيات من الشعر من إنشائه تتصل بموضوع المقامة ، كما قدم لها فى الحاشية شرحا وافيا، وهذا نموذج منها .

مقامة العمل

«يا أبا القاسم : لاتسمع لقولهم فضل مبین ، وأدب متین ، واسم فى المهارة بهما شهير، وصيت فى إتقانها جهير ، وفتى طیان من المناقص والردائل ، ريان من المناقب والفضائل ، إن ذكر متن اللغة فحلس من أحلاسه ، أو قياسها فسائس أقراسه ، أو أبنيته فليسمر السمار به وبدقة تصريفه ، لابسنمار وغبابة ترصيفه، أو النحو فهو سيبيويه وكتابه ، ينطق عنه تراجمه وأبوابه ، أو علم المعانى فمن مساجله ومسانيه ومزاوله ومعانيه ؟ ومن يفوص على معان

١- مقامات الزمخشري ، خطبة المؤلف ٥-١٠ .

كمعانيه ؟ أو نقد الكلام فالنقدَ إليه كأنهم النقدُ ، وقد عاث فيه الذئب الأعقد ، أو العروض فابن بجدتها ، وطلأع أنجدتها ، أو القوافى فإبداعه فيها يلقطك ثمرات الغراب ، وإغرابه فيها يحثو التراب فى وجوه أهل الإغراب ، أو الشعر فزياده وحسانه ، وإحسانه كما ديج الروض نيسانه ، أو النثر فلو رأى ابن لسان الحمرة حمرة لسانه لجهش ومابهش ، أو لو سمع قولة قائل من صحبانه : سحبانُ بن وائل لاستبقل من الدهش ، أو معرفة الكتابة والخط ، فقد لجج وترك الناس على الشط ، أو حفظ ما يحاضر به ، فصيب فيض ، وبحر لا يفيض ، وليس بعريان كعود النبع ، من ثمر علوم الشرع .

نعم يا أبا القاسم: وإن سمعتهم يقولون : ما أكثر فضلك ، فقل : إن فضولى أكثر ، وما أغزر أدبك ، فقل : إن قلة أدبى أغزر ، فلعمر الله ليس بأديب ولا أريب كل مغرب وحافظ غريب . الأديب الفاضل من لم يكن له أرب ولا وطر ، إلا أن يكون له عند الله فضل وخطر . ماغناء من قوي علمه وعمله قد فتر ؟ إن علما بلا علم كقوس بلا وتر ، حاملها حيران مرتبك فى العماية ، لايهتدى وإن كان ابن تقن إلى وجه الرماية ، متى نظر إلى الرماة موترين مُنبضين ، مسددين غير مُحْبِضين . فعودا من الوحش على المراصد ، يشقون خصورها بالقواصد ، أقبل على مقلاة الغم يتقلى ، ويجمرة الغيظ يتصلى ، لايزيد على تنفيذ سهامه ، والعض على إبهامه ، فإذا اشتوى غيره انشوى ، بنار من الحسرة نزاعة للشوى .

أغد عاقدا بين علمك وعملك صهرا ، وسق إلى العمل من اجتهادك مهرا ، ولا تظلم منهما شيئا من إقبالك ، ولا تبخسهما حظا من إشبالك ، ولا تدع أن تضرب أخماسا لأسداس ، حتى تلفها ونفسك فى بردة أخماس ، واعلم أن العلم إنما يتعلم ، لأنه إلى سلم ، كما أن العمل إلى ماعند الله ذريعة ، ولولاها ما علم علم ولا شرعت شريعة .

أما شروحه فى الحاشية فهى مستفيضة تنم عن حذق كثير للغة ، وثقافة متشعبة المناهى فحين يشرح كلمة «سنمار» التى وردت فى المقامة يقول :

«سنمار هو الذى بنى الخورنق للنعمان فلما أتمه رقى به معه ليريه صنعته ،

نتعجب من مهارته فى عمله ، وتنقيته فى بنائه فقال له : أيها الملك أعجب من هذا كله أنى أعرف فى هذا البناء حجرا إن نزع زعزع كله ، فخاف أن يطلع بعض أعدائه على مكان الحجر، وقيل غار أن يبتنى لغيره مثله فرمى به من رأس الخورنق فهلك ، فضرب جزاء سنمار مثلا فى عقوبة المحسن، قال شرحبيل الكلبى :

جزائى - جزاه الله شر جزائه- جزاء سنمار وماكان ذا ذنب
سوى رصه البنيان سبعين حجة يعلُّ عليه بالقراميد والسكب
فلما رأى البنيان تمَّ سحقه وأض كمثل الطود ذى الباذخ الصعب
وظن سنماراً به كلَّ خيريه وفاز لديه بالموودة والقرب
فقال اقدفوا بالعلج من رأس شاهق فذاك لعمرُ الله من أعظم الخطبِ

وقيل : السنمار فى كلام العرب الذى لاينام بالليل ، والسنمار : اللص ، وكأنه من السمر والنون مزيدة (١)

ج- أطواق الذهب فى المواعظ والخطب:

ويضم مائة مقالة فى الحكم والنصح والمواعظ، وهى مقالات صغيرة لاعنوان لها ، ألفها الزمخشري فى البيت الحرام ، يدل على ذلك قوله فى مقدمتها مبتهلا إلى الله سبحانه :

«أرغب إليك أن تفيض على هذه المقالات من البركة والقبول مايهبها مهب الجنوب والقبول ، وأن تحفظ فيها ما أوجبت للجار من حق الدمام والذمار، لأنها وجدت فى حرمك المطهر وولدت فى حجر بيتك المستر» (٢)

وقيل: إن الزمخشري حين ألفها كان يطوف ببيت الله ، فإذا فرغ من الطواف الف مقالة ، ثم يقوم ويطوف وينشئ بعد الفراغ إلى أن بلغت مائة مقالة (٣). وهذه

٢- أطواق الذهب ١٠٩ .

١- مقامات الزمخشري ٩٨ - ١٠٢ .

٢- انظر قلائد الأدب فى شرح أطواق الذهب ٩ .

نماذج منها :

١- المقالة الأولى:

ما يخفض المرءَ عدمه ويتمه ، إذا رفعه دينه وعلمه ، ولا يرفعه ماله وأهله ، إذا خفضه فجوره وجهله ، العلم هو الأب ، بل للثاني أرباب . والتقوى هي الأم ، بل هي إلى اللبان أضْمَ . فأحرز نفسك في حرزهما ، واشدد يديك بفرزهما ، يسقك الله نعمة صَيِّبَةً ، ويحيك حياة طيبة (١)

٢- المقالة الثامنة عشرة:

عزة النفس وبعد الهمة ، الموت الأحمر والخطوب المدلهمة . لكن من عرف منهل الذل فعافه ، استعذب نقيع العز وزعافه .

ومن لم يصطل بحر الهيجاء لم يصل إلى برد المغنم ، ومن لم يصبر على براثن أسد اللقاء لم يصب أطرافا كالغنم ، وتحت علم الملك المطاع ذكر السيوف والأنواع .

ومن لم يُقْضَ عليه عسرٌ يقْضُ له يسرٌ ينقذه .

وما الحكمة الالهية إلا هي ، وهي القاعدة التي أمر عليها العبد ونهى .

اليوم عزاء في كلف وكرب ، وغدا جزاء بزلف وقرب (٢)

٣- المقالة الحادية والخمسون:

رب دعاء ودمعه ، من أجل رياء وسمعه ، فلا يزيد هينك كل داع دامع العين ، ولا تغتر إذا سمعت بسرِّي القين (٣) ولا تثق فالدين خال عن ثقاته ، وأين من يتقى الله حق ثقاته ، واعلم أن أكثر الأمور مموه ، ظاهره جميل وباطنه مشوه .

١- أطواق الذهب ٨

٢- المصدر السابق ٢٤ .

٣- لا تغتر إذا سمعت بسرِّي القين : هذا من أمثالهم ، وأصله أن الحداد يقيم عند قوم أياما ثم يقول: إني راحل عنكم الليلة ، يريد بذلك استعجالهم لعمله ، ثم يبقى فيقال : إذا سمعت بسرِّي القين فاعلم أنه مصبح .

فاستعذ بالله من شر ما أنت راء ، فإن الدنيا كل يوم إلى وراء .(١)

٤- المقالة السابعة والتسعون :

لا تخطب المرأة لحسنها ولكن لحصنها ، فإن اجتمع الحصن والجمال فذاك هو الكمال ، وأكمل من ذلك أن تعيش حصورا ، وإن عمرت عصورا(٢)

د- أعجب العجب فى شرح لامية العرب :

وهو شرح لقصيدة الشنفرى التى مطلعها :

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم فإنى إلى قوم سواهم لأميل
وتحت عنوانه كتبت هذه الأبيات لابن حفص :

يا حسنة زركشا صارت جواهره بين اليواقيت لم تُسبق إلى أرب
شق الإله له من اسمه صفة بل نسبة ظهرت فى الروم والعرب
لا تعجبوا لابن كشاف إذا برزت منه الفرائب فى لامية العرب
بل كونه أعجمى الأصل منطبعاً يعلم اللغة الفصحاء للعرب

وقدم الزمخشري لها شرحاً مستفيضاً استغرق أكثر من سبعين صفحة ، وإن كانت التخريجات النحوية والصرفية تسيطر عليه ، ومع هذا فهو يتوسل بها إلى توضيح المعانى وتحديد المقصود بها . وهذا نموذج لشرحه فيها :

أقدم منه ماقاله فى هذا البيت من اللامية :

وخرق كظهر الترس قفر قطعته بعاملتين ظهره ليس يعمل

«الخرق : الأرض الواسعة تتخرق فيها الرياح ، وجمعها خروق ، قال الهذلى :
وإنهما لجوابا خروق .

وكظهر الترس : يريد أنها مستوية .

١- المصدر السابق ٦٥ .

٢- المصدر السابق ١٠٩ .

وقفر : ليس بها أحد ، والعاملتان : رجلاه .

وظهره : إشارة إلى الخرق أيضا .

وخرق مجرور برب ، وكظهر الترس صفة لخرق ، وقفر قطعته صفتان لخرق أيضا، والواو واو رب. وتتعلق بمحذوف ، أى قصدت خرقا من الأرض ، ويجوز أن يكون «قطعته» هو العامل فى رب ، فلا يكون صفة الباء فى «بعاملتين» تتعلق بقطعت، وظهره مبتدأ ، وليس وماعملتُ فيه خبره ، واسم ليس مستتر فيها ، ويعمل خبرها ، والمبتدأ وخبره صفة لخرق ، أى غير معمل فيها الركاب ، (١)

هـ- خصائص العشرة الكرام البهرة:

ويبحث فى خصائص العشرة المبشرين بالجنة ، وقد طبع بتحقيق الدكتورة بهيجة الحسنى.

والى جانب هذه المؤلفات الأدبية المطبوعة للزمخشرى تذكر المراجع له كتباً أخرى فى النثر الأدبى منها : شافى العى من كلام الشافعى ، وشقائق النعمان فى حقائق النعمان ، وديوان الرسائل ، وديوان خطب ، وديوان التمثيل ، وتسليية الضرير ، ورسالة المسامة والأمالى فى كل فن (٢).

ومن نثره الأدبى كذلك ماصدر به كتبه على اختلافها من مقدمات أو خطب (٣) وهى على قدر كبير من البلاغة .

ومنه مآثر عنه من رسائل إلى بعض العلماء مثل رسالتيه إلى الحافظ السلفى ردا على استجازته إياه ، وقد حققتهما الدكتورة بهيجة الحسنى ونشرتهما مع رسالة الحافظ السلفى (٤) بالمجلد الثالث والعشرين من مجلة

١- أعجب العجب فى شرح لامية العرب ٦٩ - ٧٠ .

٢- معجم الأدباء ١٩/١٢٣ - ١٢٥ ووفيات الأعيان ٢/١٠٧-١٠ ، وكشف الظنون ، ومفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم ٢/٥٨ والزمخشرى ٥٦ - ٦٣ .

٣- انظر خطبة الديوان ١-٣ .

٤- هو الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد السلفى أحد الحفاظ المكثرين، رحل فى طلب العلم ، ولقى أعيان المشايخ ، وكان شافعى المذهب، ورد بغداد واشتغل بها على الكيا أبى الحسن =

المجمع العلمى العراقى، كما ذكر ياقوت جزءاً من إحدى رسالتيه قائلاً فى ترجمته: ومن إنشائه (أى الزمخشري) ماكتب به إلى حافظ الإسكندرية أبى طاهر السلفى جواباً عن كتاب كتبه إليه يستجيزه :

«مامثلى مع أعلام العلماء ، إلا كمثل السها مع مصابيح السماء ، والجهم الصُفر والرَّهَام، مع الغوادى الغامرة للقيعان والآكام . والسُّكُيت المخلف عن خيل السباق ، والبيغات مع الطير العتاق، وما التقليب بالعلامة إلا شبه الرقم والعلامة ، والعلم مدينة أحد بابيها الدراية ، والثانى الرواية ، وأنا فى كلا البابين ذو بضاعة مزجاة، ظلى فيها أقلص من ظل حصاة.

أما الرواية فحديثه الميلاد قريبة الإسناد ، لم يستند إلى علماء نحارير وأعلام مشاهير . وأما الدراسة فتمد لا يبلغ أفواها ، وبرّض مايبلى شفاهاً. إلى إن قال : ولايغرنكم قول فلان فى. وذكَر جماعة من العلماء والشعراء مدحوه وأثنوا عليه ، ثم قال : فإن ذلك اغترار بالظاهر المموه ، وجهل بالباطن المشوّه ، ولعل الذى غرهم منى مارأوا من حسن النصح للمسلمين وبلوغ الشفقة على المستفيدين ، وقطع المطامع وإفادة المبار والصنائع ، وعزة النفس والربء بها عن السفاسف ، والإقبال على خوِيصتى ، والإعراض عما لايعنينى ، فجللت فى عيونهم ، وغلطوا فى ونسبونى الى مالست منه فى قبيل ولادبير... إلخ .

والكتاب طويل اقتصرت منه على ما أوردت(١)

= علي الهراسى فى الفقه، وعلى الخطيب أبى زكريا يحيى بن على التبريزى اللغوى ، وروى عن أبى محمد جعفر بن محمد بن جعفر بن السراج وغيره من الأئمة الأمائل ، وجاب البلاد وطاف الآفاق ، ودخل ثغر الإسكندرية سنة إحدى عشرة وخمسائة ، وأقام به وقصده الناس من الأماكن البعيدة وسمعوا عليه وانتفعوا به ، ولم يكن فى آخر عصره مثله ، وبنى له العادل أبو الحسن على وزير الظافر العبيدى صاحب مصر سنة ست وأربعين وخمسائة مدرسة بالثغر المذكور وفوضها إليه وهى معروفة به إلى الآن . انظر وفيات الأعيان ١/٢٧-٣٨ .

١- معجم الأدباء ١٩/١٣٢ ، ١٣٣ .

تعليق على النثر الأدبي للزمخشري:

من هذا العرض لبعض مبادئه يراعة الزمخشري فى فن النثر الأدبى يمكن أن نسجل هذه الملاحظات :

١- أن الزمخشري قد اهتم بالنثر الأدبى وخاض فى مختلف فنونه التى عرفها عصره، فوجدنا له مايتصل بفنون الترجمة والأمثال والحكم والخطب والمقامات والمقالات والرسائل .

٢- أن موضوعاته فى نثره الأدبى تدور فى معظمها حول النصح والوعظ والحكمة والنقد السياسى والاجتماعى .

٣- أن الوجدان الدينى يبدو واضحا فى معظم ماكتب، فالزمخشري يطالعنا فيها عالما صالحا غيورا على دينه ناصحا للمسلمين ولنفسه .

٤- أن لغته فيه جزلة يكثر فيها الغريب والاقتباس من القرآن والحديث والشعر والأمثال وحكم السابقين .

٥- أما أسلوبه فيها فهو أسلوب الصنعة اللفظية، يحرص فيها على ألوان البديع، لاسيما السجع والجناس والطباق والازدواج ، ومع مايببدو من تكلف فى بعضها فإن القارئ لايسعه إلا أن يسجل للزمخشري قدرته البارعة على تحقيق هذه الألوان والإكثار منها فى سهولة ويسر، تجعلها تبدو فى معظم الأحيان طبيعية لا تكلف فيها ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى ضخامة الثروة اللغوية التى يمتلكها الزمخشري، وإلى إحاطته بأسرار اللغة وطرق تصريفها وقواعد اشتقاقها، كما يرجع إلى سعة ثقافته.

وشئ آخر له أهمية فى هذا المقام هو أن الزمخشري وإن كان يهتم بالبديع ويقصد إليه ، ويرى فيه زينة لأسلوبه ، ودليلا على مهارته، فهو يستعمله بوعى لمواطن حسنه وقبحه ، يعرف كيف يستعمله ، ومتى، ولا بأس فى أن أذكر هذه السطور التى جاءت فى مقدمة مقاماته، يخاطب بها من سيقدم على قراءتها لنقف

منها على اهتمامه بالبديع ، ونقف على شئ من مذهبه فيه . يقول : (١).....
«وتكليفك أن لاتمر على شئ من تلك الأسجاع وغيرها من أبواب الصنعة إلا
متأملا وجه تمكنه (يقصد نفسه) ، وثبات قدمه ، والاستعداد له قبل مورده ،
لتعلم أن ماسماه الناس البديع من تحسين الألفاظ وتزيينها بطلب الطباق فيها
والتجنيس والتسجيع والترصيع لايملح ولايبرع حتى يوازى مصنوعه مطبوعه ،
وإلا فما قلق فى أماكنه ، ونبا عن مواقعه. فمنبوذ بالعراء ، مرفوض عند الخطباء
والشعراء ، وأن تنبه على من يدرسه على مواقع النكت فيها واللطائف ، وماروعى
فى مناظمتها من رائع الترتيب ، وتفهيماك أن كلمات السجع موضوعة على أن
تكون ساكنة الأعجاز موقوفا عليها ، لأن الغرض أن يجانس بين القرائن ، ويزاوج
بينها ، ومايتم ذلك إلا بالوقف ، وإلا ذهبت أيادى سبا» .

ولم يكن الزمخشري بدعا فى الاهتمام بالبديع ، فقد أصبح البديع مذهب
الكتابة فى هذا العصر ، والذوق العام لأهله ، يحرص عليه كل أديب ، ولم يسلم
من الشغف به والوقوع فى شباكه كاتب، ولكن يبقى للزمخشري أن وراء أسلوبه
البديعى ثروة فكرية ولغوية ، وكنوزا علمية وأدبية وتحفا فنية تثرى وتمتع كل
من يقرأها .

وأما فى الشعر :

فقد ترك الزمخشري ديوان شعر سماه «ديوان الأدب» حوى مايزيد على
خمسة آلاف بيت ، كما نسبت إليه قليل من القصائد وبعض المقطعات التى لم
ترد فى ديوانه .

وقد قمت بتحقيق هذا الديوان ، وذيلته بملحق جمعت فيه ماعثرت عليه
ومانسب إلى الزمخشري من شعر لم يرد فى ديوانه .

وبذلك نرى أن الزمخشري كما كان العالم النحرير الذى برز فى العديد من
فروع العلم، كان الأديب النابه الذى نبغ فى كثير من فنون الأدب ، وأنه كما كان
صادقا حين افتخر بعلمه حريا بهذا الفخر كان جديرا بأن يفتخر بأدبه شعرا

(١) مقامات الزمخشري المقدمة ص ٣ .

ونثرا، ومما قاله فى ذلك :

أقرت بى الآداب أصلا لها ومن رأى مشرفيات جحدن المشارفا
وديوان منظومى يريك بدائعا وديوان منثورى يريك طرائفا^(١)

تلاميذه:

وكما كان الزمخشري مؤلفا عظيما بمؤلفاته الكثيرة كان أستاذا ذائع الصيت له تلاميذه الكثيرون ، عرفوا له قدره العلمى والأدبى فحرصوا على الأخذ عنه والسماع منه وطلب إجازته .

فقد روى عنه أبو المحاسن إسماعيل بن عبد الله الطويلى بطبرستان، وأبو المحاسن عبد الرحيم بن عبد الله البزاز بأبيورد، وأبو عمرو عامر بن الحسن السمسار بزمخشر، وأبو سعد أحمد بن محمود الشاذلى بسمرقند، وأبو طاهر سامان بن عبد الملك الفقيه بخوارزم، وجماعة سواهم .^(٢)

وتتلمذ له أبو الفضل محمد بن أبى القاسم بايجوك البقال الخوارزمى الملقب زين المشايخ النحوى الأديب، أخذ عن الزمخشري الفقه وعلم الإعراب وسمع منه الحديث وخلفه فى حلقة العلمية وقد توفى فى سنة ٥٦٢ هـ .^(٣)

وضياء الدين المكى وهو أحب تلاميذ الزمخشري إليه ، وله كفاية النحو فى علم الإعراب وهو شرح للأنموذج .^(٤)

وأبو الحسن القمرانى الخوارزمى، الملقب حجة الأفاضل على بن محمد بن على وقد قرأ على الزمخشري الأدب وسمع منه الحديث وكان يذهب مذهب الرأى والعدل.^(٥)

والموفق بن أحمد المكى الخوارزمى، مؤلف مناقب الإمام الأعظم أبى حنيفة ، ومناقب أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، كان فقيها أديبا له خطب وشعر ، أصله

١- الديوان ١٨٨ . ٢- الأنساب ٢٧٧ .

٣- معجم الأدياء ٥/١٩ وتاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان ٥/٢٣٩ .

٤- تاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان ٥/٢٨٣ .

٥- معجم الأدياء ٦١/١٥ ، ٦٢ .

من مكة، وأخذ العربية عن الزمخشري بخوارزم وتولى الخطابة بجامعة وتوفى
سنة ٥٦٨ هـ. (١)

ومن شعره فى مدح أستاذه الزمخشري :

لسانك غواص ، ولفظك لؤلؤ وفكرك بحر للفضائل طامى (٢)
وعليّ بن عيسى بن حمزة بن وهاس، من شرفاء مكة وأمرائها ، وكان ذا
فضل غزير، وله تصانيف مفيدة وقريحة فى النظم والنثر مجيدة ، قرأ على
الزمخشري بمكة، وبرز، وصرفت أئنة طلب العلم إليه. (٣)

ومن شعره الذى يمدح الزمخشري به :

وكم للإمام الفرد عندي من يد وهاتيك عندي ممّا قد أطاب وأكثر
أخى العزّة البيضاء والهمة التى أنافتُ به ، علامة العصر والورى
جميع قرى الدنيا سوى القرية التى تبواها دار ا فداء زمخشرا (٤)
ومنه كذلك :

أتى حرم الله العظيم مجاورا فله ما أدنت جمال وأينق
فمن حوضه عبت ظماء ذوى النهى فآبت رواء وهو ملآن يفهق (٥)

وللزمخشري فيه مدائح كثيرة تضمنها ديوانه وأطلق عليها «الوہاسيات» .

والقاضى أديب الملوك أبو إسماعيل يعقوب بن شيرين الجندي ، قال عنه
الزمخشري : «أفضل الفتيان فى عصره وأعقلهم وأذكاهم ، وكان كاتب سلطان
خوارزم ، فاستعفى ، وهو يكتب باللسانين العربية والفارسية ويحسن ، وهو

١- الفوائد البهية ٤١ والإعلام ٢٨٩/٨ .

٢- معجم الأدياء ٨٥/١٤ .

٣- أزهار الرياض ٢٩١/٣ .

٤- المرجع السابق ٢٩٠ .

٥- أزهار الرياض ٢٨٩/٣ .

ممن ربيت وخرجت ، وبلغت تلك الذروة ، وهو أوثق سهم من كنانتي» (١)

وله شعر يثنى فيه على الزمخشري ومجالسه العلمية ومنه :

فتى سارفى الأفاق ركباًنُ ذكروه مغربةً طورا وطورا مشرقه
إذا حلّ فى أرض أتاها فحولها تفيدُ علوما حوله متحلقه
وان خاض فى شرح العلوم رأيتها لفرط احتشام من معاليه مطرقه
فليس له فى كل شرق ومغرب نظير، بنو الدنيا على ذاك مطبقة(٢)

وطلب الاجازة والرواية من الزمخشري الحافظ السلفى(٣) وأم المؤيد زينب بنت الشعري(٤) ورشيد الدين الطواط(٥) ومن شعره فى الزمخشري :

لقد حاز جارُ الله دام جماله فضائل فيها لا يشق غباره
تجدد رسم الفضل بعد اندراسه بآثار جار الله فالله جاره(٦)

وكان الزمخشري جديرا بأن يفخر فى شعره بأستاذيته لهؤلاء التلاميذ الذين يرتحلون إليه من شرق البلاد وغربها، يسمعون منه ويقرأون كتبه، ومما قاله فى ذلك :

وسُميتُ بين العرب والعجم رُحلة إلى يَزَجَّونَ المَطِيَّ عواسِفا
يؤمُّون قذافا بأشياء لم تكن بأمثالها خُضِرُ البحور قواذِفا
تزان حواشى الكتب منها بزُخرف تراه فتنسى الرائع المتناصِفا
أمالٍ كآمالٍ أتتك فجاءةً فأصبحت مغبوطا وقد بتُ لاهِفا

١- أزهار الرياض ٢٨٦/٣ .

٢- المرجع السابق ٢٩٢ .

٣- سبق التعريف به .

٤- كانت عالمة وادركت جماعة من اعيان العلماء، وأخذت عنهم رواية وإجازة منهم الزمخشري . وفيات الأعيان ٢٤٧/١ .

٥- أديب وكاتب وشاعر ولد ببلخ ومات بخوارزم سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة من الهجرة

٦- المرجع السابق .

معجم الأدباء ٩ / ١٢٩ .

ألم تر أنى - حيثما كنتُ - كعبةٌ
يَحْفُونُ بى كالطائفين طوائفا
فشرقِيهم يهوى إلى النورِ قابسا
وغربِيهم يسعى إلى البحرِ غارفا (١)

ويقول واصفا احتفاء تلاميذه من مكة به حين يقبل عليهم :

متى أقبل العلامة انتفضوا له
وحيوه ، حيا الله تلك المعارفا
وهشوا إليه باسطين أسرةً
بماء الحياء الهاشمى نواطفا
كركبٍ عطاش بعد ياسٍ تباشروا
بأن أبصروا زاهيد متكاثفا (٢)



الفصل الرابع

معالم شخصيته (١)

لايكتمل التعرف على الزمخشري إلا بالتعرف على ماكانت تمتاز به شخصيته من سمات تعد معالم لها .

ومن تلك المعالم التي اتصفت بها شخصيته ، وكان لها أثرها في شعره:

١ - شغفه بالعلم والأدب:

عشق الزمخشري العلم والأدب منذ صغره ، وعاش لهما طول حياته دارسا ومصنفا ومعلما ، وقد سبق الحديث عن ذلك بكثير من التفصيل (٢).

وأضيف هنا أن شعر الزمخشري قد عكس هذا الشغف ، وكان في تعبيره عن ذلك صادقا كل الصدق .

من ذلك قوله يذكر هيامه بالبحث العلمي وحبه الجلوس إلى العلماء النحارير:

إذا التصقتُ بالبحث في العلم ركبتى بركبة نحريير على الجدِّ دأب

فإن دام لى عونُ الإله على الذى أعانيه من فضلٍ ويرُّ وأداب

وإن نظرت عيني على الودِّ والصفاء مع البر والتقوى نواظر أحباب

فقل للملوك الأرض يلهوا ويلعبوا فذلك لهوى ماحييتُ وتلَعابى (٣)

ويقول عن متعته التي يجدها في تنقيح العلوم ، وحل عويصها، والكتابة فيها

:سهرى لتنقيح العلوم الذِّلى من وصلِّ غانية ، وطيب عناق

وتمايلى طربا لحلِّ عويصةٍ أشهى وأحلى من مُدامة ساقى

١- في كتاب «الزمخشري» للدكتور أحمد الحوفى فصل عن معالم شخصية الزمخشري (٦٤-٩٨) وسوف أركز في حديثي هنا على تلك المعالم التي كان لها صداها في شعره ، ذاكرا منه مايصور ذلك .

٢- انظر ما سبق في من هذه الدراسة .

٣- ملحق الديوان ٥٣٥ .

وصرير أقلامى على أوراقها أحلى من الدوكاء والعشاق
والذ من نقر الفتاة لدُفها نقرى لألقى الرمل عن أوراقى (١)
ويقول مبينا مايجده من الأنس حين يخلو إلى قلمه وكتبه، فيجد فيهما ما
يعينه فى عزلته، بعد أن افتقد من يرتضى مخالطته من الناس :

وعيدان أبناء الزمان عجمتها فلم يُلَفَ مَرَضِيٌّ ولا متخيرٌ
فخيّمتُ فى بعض الزوايا يعيننى على الأنس مسودّ القوائم أصفرُ
جهولٌ لما أظهرته ، غير أنه يترجم عما فى فؤادى مضمُرُ
وملأى من الدرّ الذى لم يَغْصُ على فرائده إلا النُهَى والتفكرُ
مُمسحةُ الأطراف بالمرهفِ الظبى مُحبرة الأوساط تطوى وتنشر (٢)
٢ - ورعه :

كان الزمخشري على جانب كبير من الصلاح والورع ، محباً للدين ، غيوراً
عليه . فصاحب مفتاح السعادة يقول عنه «كان من الورع وقيام الليل ، وتدريس
العلم فى الرتبة العليا» (٣)

وابن حجر العسقلانى وهو من مخالفيه فى الاعتزال اعترف له بالصلاح
فقال :

«صالح لكنه داعية إلى الاعتزال أجارنا الله فكن حذرا من كشّافه» (٤)

ونشأة الزمخشري وحياته ومؤلفاته كلها تؤيد هذه الشهادة، وقد سبق
الحديث عنها بكثير من التفصيل .

وأضيف هنا أن الوجدان الدينى يبرز واضحا فى معظم شعره بأغراضه

٢- الديوان ٨٣ .

١- ملحق الديوان ٥٣٩ .

٣- مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم ١٠٠/٢ .

٤- لسان الميزان ٤/٦ .

المتنوعة، فحين يفخر يذكر الحياء والعفة وإيثار الحلال وتجنب الحرام، فيقول :
وأورثنى ثوبى حياء وعفة جُد ودّ كرام ، والمواريث تُذخَر (١)

ويقول :

إلى دنيات الأمور بغِيضةً وقد نال منى كلُّ حب جسامها
وأبغى من الأشياء ما كان مطلقا ، وهل يُجدى على حرامها ؟
وكأس يروح البدرُ دون بريقها فوق شعاع الشمس يغدو مُدامها
حمأنى حميأها صدأى إلى التى يقول لها ذو العرش: مسك ختامها (٢)

وحين يشكو نجد فى شكواه الغيرة على الدين والخلق ، والأسى لما حل بهما
فيقول :

هذا وإن أحقّ البائقات بأنّ تُبيت أهل النهى مستشعري الكمدِ
مأثم رُكبت حتى استحقّ بها ما حل بالناس من شؤم ومن نكد (٣)

وحين يهجو يذم فى من يهجوهم الشح المطاع ، والهوى المتبع فى الدين، والفسق
الصرّاح ، وأمثالها مما تؤلم رجل الدين الغيور على قيمه وأخلاقه، فيقول :

شحّ مطاع ، هوى فى الدين متبعُ فسقُ صرّاح ، قلوبُ الغلِّ والحسد
لاخصلةٌ من خصال البر واحدةٌ لاهمةٌ لا تقى لاخيرَ فى أحد (٤)

وحين يمدح يشيد بورع ومدوحه وعزوفه عن مواطن اللهو، فيقول :

وذو ورع لا الكأسُ تعرف كفه ولاكفه الشطرنجُ تعرف والنرد (٥)

بل إن هذا الوجدان لايتوارى حتى فى غزله ، فنجده يقول فيه :

أتبز عن عطفى رداء الدين أجيادُ غزّلانٍ وأعينُ عين (٦)

٢- الديوان ٥٥ .

٤- الديوان ٢٦١ .

٦- الديوان ٣٤٧ .

١- الديوان ٨٤ .

٣- الديوان ٢٦١ .

٥- الديوان ٢٥ .

ويقول:

عَفْتُ الْهَوَى وَعَفْتُ عَنْهُ وَاقِيَا عَرْضِي بَدْرُجٍ مِنْ تَقَايِ رَصِينِ (١)

ويقول :

وَيَجْمَعُنِي وَإِيَاهَا وَصَالٌ عَلَى أَنْ الْوِصَالَ مَعَ الْبَقِيَّةِ
فَمَا ثَلَمْتُ إِذَنْ دِينِي وَإِنْ لَمْ تَنْزَلْ كَبِدِي لِمَقْلَتِهَا رَمِيَّةٌ
قَبِيحٌ بِي إِلَى الْفَضْلِ انْتِسَابٌ وَالْمَامُ بِأَفْعَالٍ رَدِيَّةٌ
لَفَفْتُ مُرْوَةً بِالْمَدِينِ لَفًا فَدِينِي وَالْمُرْوَةَ لِي سَجِيه (٢)

ولست بحاجة إلى أن أذكر أمثلة لظهور الوجدان الديني في شعر الرثاء أو الزهد أو الحنين إلى مكة أو مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ، ذلك أن الدين في هذه الأغراض يمثل المادة الأساسية للفكر ، والنبع الفياض للوجدان ، وهو فيها أظهر من أن يستشهد له بنموذج أو أكثر، فكلها تصلح نماذج للاستشهاد على وجوده فيها .

٣- طموحه وقوة إرادته:

الطموح وقوة الإرادة معلّمان بارزان في شخصية الزمخشري ، عرفناهما فيه منذ صغره ، وظهر أثرهما بارزا في سلوكه طوال حياته، ثم في تفوقه ونبوغه في ميداني العلم والأدب .

وبين الصفتين ارتباط وثيق ، فالطموح يحركه في طريق آماله ، ويغريه بتحمل الصعاب في سبيل الوصول إلى هذه الآمال ، وقوة الإرادة تمدّه بالطاقة التي تعينه على تحمل تلك الصعاب ، وتنصره على دواعي الراحة والتكاسل .

عرفنا الصفتين فيه صغيرا، ضعيف الجسم، مهيبض الجناح، يشفق عليه أبوه من الاغتراب لطلب العلم، وهو يصر على السفر قائلا لأبيه : احملني إلى البلد واتركني هناك (٣).

٣- انظر ٤٤ من هذه الدراسة .

٢- الديوان ٢٧٩ .

١- الديوان ٣٤٧ .

وعرفناهما فيه شابا، يقتحم مجالس كبار الدولة، ويتقدم إليهم بما حصل من علم وأدب، وماعرف به من فضل وكفاءة، طالبا أن ينال حقه فى مجتمعه، ويعرف له ولأمثاله من الفضلاء قدرهم (١).

وعرفناهما فيه شيخا، يطمح إلى عفو الله ورضائه والظفر بجنته، فيتجه إليه بكل قوة معرضا عن كل مايشغله عنه ويختط لنفسه حياة جديدة، فإذا هو الزاهد الناسك الذى يعاف عطايا الملوك، ويترفع عن مدحهم، ويترك وطنه الحبيب إلى قلبه مهاجرا إلى مكة؛ ليقيم فى جوار البيت الحرام منقطعا للعبادة والعلم، مادحا الرسول صلى الله عليه وسلم، متغنيا بحياة الزهد والصلاح (٢).

وعرفناهما فى حياته العلمية والأدبية، وكان من أثرهما هذه المؤلفات التى تشهد بكثرتها وتنوع فنونها على ماانتهدت إليه هذه الشخصية من تفوق ونبوغ، وعلى ماتسلحت به لذلك من طموح وقوة إرادة.

وهو يحدثنا عن عزة النفس وبعد الهمة حديث الخبير بهما الذى عشقهما رغم وعورة طريقيهما وكثرة ماحف به من الخطوب، فيقول: عزة النفس وبعد الهمة الموت الأحمر والخطوب المدلهمة، ولكن من عرف منهل الذل فعافه، استعذب العز وزعافه، ومن لم يصطل بحر الهيجاء لم يصل إلى برد المغنم، وتحت علم الملك المطاع ذكر السيوف والأنطاع (٣).

وشعره يسجل فى مواضع كثيرة اتصافه بهاتين الصفتين، وإعجابه بهما. فحين يذكر نعم الله عليه لاينسى ماطبّع عليه نفسه من علو الهمة والعزة، فيقول:

وركبَ فيما بين دَفِيِّ هِمَّةٍ وعزّةَ نَفْسٍ تُبْغِضانِ السِّفَاسِفا
ولكنَ عليّاتُ الأمورِ وشُمُّها وإن كنتُ خوأضا إليها المخاوفا (٤)

٢- أطواق الذهب ٢٤ .

٤- الديوان ١٩٢ .

١- انظر ٥٦-٦٢ من هذه الدراسة .

٢- انظر ٦٧ - ٧٠ من هذه الدراسة .

وقد عشقت نفسه عظام الأمور ، وهامت بأسباب المجد ، فإذا حاول أن يكفكف من طموحها ، وأن يردها إلى القناعة والرضا بالواقع ، إيثارا للراحة ، فإنها تنفر منه وتسرع ساعية إلى المجد ، غير عابئة بما تتعرض له من الطوارق والخطوب . ويتحدث عن ذلك فى شعره ، فيقول :

زجرتُ عن العلا نفسى فرزفتُ كما سبقت يدَ الساقى الذنوبُ
مواشكةً فلو جنبت إليها لعيبَ أن تعارضها الجنوبُ
تهبُّ مع العواصف ثم تبقى حسيراتٍ ، وجدُّ بها الهبوبُ
فواهاً للتى اجتنحتُ عليها ضلوعى ، إنها لهى الكذوب
سعتُ للمجد خفاقا حشاها تطاوحها الطوارق والخطوب^(١)

وحين يتحدث إلى حبيبته يذكر جده وصلابته ومضاء عزيمته ، فيقول :

إنى لذو جدِّ كما جربتني صلَّبٌ وبعض الناس رَخو فاترُ
إن عن لى أمر فلى عن رَفْضه ناهٍ ، وبالإطناب فيه أمرُ
فإذا عزمْتُ - على تخاذل نهضتى - أمضى العزيمة جدى المتناصر^(٢)

وحين تدعوه الحبيبات إلى الوصل لا يظفرن منه بما يردن ، لأنه قد أثر عليهن جسيمات المعالى ، فعشقها ، وهام بها ، وعاش لها ، كما يقول :

دعتنى إلى الوصل الدمى غير أننى حمانى جوابَ الداعيات التحرِّجُ
ونفسُ جسيمات المعالى يشقُّنها إذا غزلُ شاقته خودٌ وهودجُ
لها همم لو أنهن كواكبُ لما وسعت تلك الكواكب أبرج^(٣)
وحين يتحدث عن كثرة أسفاره يذكر أنه يجهز نفسه لابتغاء علوها بهذه الأسفار ، فيقول :

٢- الديوان ٣١٣ .

١- الديوان ٢٦٨ .

٢- الديوان ٣٩ .

وماضربى البلدان أبغى تجارةً بلى إننى أبغى التجارة فى الخير
 أجهزُ نفسى لابتغاء علوِّها ومماثلُ ما أبغى يقومُ به غيرى (١)

وفى حديثه عن هذه الأسفار يبرز لنا قوى النفس ، على الهمة ، بعيد المطمح
 صلب الإرادة ، ماضى العزيمة ، لاتثنيه الصعاب والمخاطر عن المضى إلى آماله ،
 ولاتغريه الراحة بالتقاعد والتكاسل .

نجد ذلك فى قوله متهيئاً للترحل ، طالباً من فتاه الإعداد له :

قربَ قلوصى للترحلُ يافتى هذا القرار على الهوان إلى متى
 لا بد من إصلاات سيف العزم لا يفرى الطلئى الصمصامُ إلا مُصلتا
 إن سرتُ عن عرصات قومى لم أكنُ لأعيرهم من أجدعى تَلَفْتَا
 من يجمع الأملَ المشتتَ لم يبُلُ أن يترك الشملَ الجميعَ مشتتَا
 أنا إن رقتُ رأيتَ ماء غمامةٍ فإذا قسوتُ رأيتَ صخرًا مُصمّتا
 إلا أدعُ خوَارِزمَ خلفَ ذميلها لا يدعنى قومى الفتى كلُّ الفتى
 ليس العواطسُ إن رحلتُ مبكرا بمثبّطاتى ، بل أمر مشمتا
 لولا مماطلةُ الزمان تقدمى ماكان سيرى بالربيع موقتا
 أبأنُ أمنى القوتَ أقعدُ راضيا لاكان من يرضى بأن يتقوتا (٢)

وفى موقف شبيه بهذا الموقف يقول لصاحبيه :

يسراها بالكور والأنساع مارباعُ الهوانِ لى برباع
 إن سيرى فى السهب والقاع خير من قعودى شبيه نقع بقاع
 رعى روض المنى على الحرِّ عار إن روض المنى وخيم المراعى
 ليس يأوى إلى القناعة إلا عاجزٌ لا يطيق كشف القناع

١- الديوان ٣١ .

٢- الديوان ٣٢٢ .

ولو أن الظباء خيرن ما اخترن سوى أن يكن بعض السباع^(١)
وتمضى الأبيات جياشة بهذه الأحاسيس المتقدة طموحا وكبرياء، تفيض بها
نفس تعشق المعالي ، وتعجب بالقوة والشجاعة ، وتنفر من الضعف والجبن ،
وحتى حديثه عن الزهد نرى فيه همة الزاهد القوية التي سمت به ، فترفع عن
الدنيا ومتعتها ، يقول راسما بعض ملامحه :

ما زال يستحقر الدنيا بهمته حتى ترقت إلى الأخرى به هممه
فذاك أعظم من ذى التاج متكئنا على النمارق محتفًا به حشمه^(٢)
٤ - عزة نفسه :

ومامنزل الإذلال للحر منزلا وإن كان عيش الحر فيه رغيدا^(٣)

لم تكن هذه الحكمة إلا تعبيراً صادقاً عن قيمة خلقية اعتز بها الزمخشري ،
فهو عزيز النفس لا يقيم على ضيم ، ولا يتردد في أن يترك أحب مكان إلى نفسه
إذا لحقه فيه أدنى هوان ، فالكرامة عنده قبل كل شيء ، إنه يحب خوارزم مسقط
رأسه ومسرح صباه ومهد ذكرياته ، ومع هذا فقد كان كثير الرحيل عنها إلى
غيرها ، باحثاً عن العزة التي طلبها فيها فلم يجدها هذا ما يعبر عنه في قوله :

أحبُّ بلاد الله شرقاً ومغرباً إلى التي فيها غذيتُ وليدا
ولكن تواسى بالكرامة غيرها وهذى أرى فيها الهوان عتيدا
فلا كنتُ - إن خيمتُ فيها - ابنَ حرّة - ولا عشتُ بين الصالحين حميدا^(٤)

ولم تكن طلببة الشاعر سهلة المنال ، إنه يطلب الكرامة للعلم والعلماء ،
والتقدير للفضل والفضلاء ، وأنى له ذلك في عهد يقول فيه :

ترى ملكاً أشمّ ولا افتقاراً لأهل الفضل فيه ولا اصطناعاً
ترى الصنّاج تنفعه يدها وليس لعالمٍ بهما انتفاع^(٥)

٣- الديوان ١٥٤ .

٢- ملحق الديوان ٥٤٦ .

١- الديوان ٤٩٢ .

٥- الديوان ٢٧٣ .

٤- الديوان ١٥٤ .

فلا عجب إذا رأينا الشاعر كثير الترحال ، لا يقرُّ له قرار ، ينتقل من بلد إلى آخر، فإن لم يظفر بالكرامة فحسبه أن يفر من الهوان :

مستديم الأسفار قد أكلته مثلما تأكل الليالى الأهلته
كل يوم ركابه مُثقلاتٌ كل يوم خيامه مُستقلته
ماتذرى السنّام من لم تُثره غيرة النفس عن مقام المذّله (١)

لقد ابتلى فى عصره بكثير من اللثام البخلاء الذين يكثرّون المنّ على قليل العطاء ، وللشاعر نفس أبية تؤثر المنية على معايشة هؤلاء اللثام وسماع منهم ، فلا أقل من أن يرحل عن ديارهم ناجيا بعزة نفسه أن يمسه هوان ، يصور ذلك فيقول :

وإنّ المنّ من نفر لثام أمر لئى من طعم المنية
يقل عطاؤهم والمنّ جمٌ فلا كانوا ولا كان العطية
إذا ضعة عرتنى فى مكان وضعت الرجل فى ظهر المطية
وما دار المذلة لى بدار أبت لى ذلك النفس الأبية (٢)

وهو يكره التملق ويعده دناءة يصون نفسه عنها على ما نجد فى قوله :

ولست بزوار الرجال تملقاً وركنى عن تلك الدناءة أزور (٣)

فلا عجب إذا عاش الشاعر فقيرا على كثرة أفضاله وقلة مسئولياته :

غننى من الآداب ، لكننى إذا نظرت فما فى الكف غير الأنامل (٤)

ولا يضيره أن يبيع أرضه، فحسبه أنه محافظ على عرضه وكرامته :

قد أصبحت جارتى تجهلنى غداة أصبحت بائعا أرضى

١- الديوان ٥٠٨ .

٢- الديوان ٢٧٩ .

٣- الديوان ٨٤ .

٤- الديوان ٧٠ .

فقلتُ ما صفتي بخاسرةٍ أبيعُ أرضي وأشتري عِرضي (١)
 فما أصدقه حين قال عن نفسه :
 تُبْطِنِي عن موقفِ الذِّلِّ هِمَّةٌ إلى جنبها خُدَّ السَّمَاكِ مُعْفَرٌ
 وعزَّةُ نفسٍ تركبُ السيفَ مَرْهَفَا وتسمعُ حِسًّا من هوانٍ فتنفِرُ (٢)

٥ - حبه العرب ومعارضته الشعبيين

عرف الزمخشريُّ بحبه الشديد للعرب، وبقوة معارضته لمذهب الشعوبية (٣) على الرغم من أنه فارسي الأصل ، ولا أجاوز الحقيقة إذا قلت: إنه كان يتعصب للعرب ويفضلهم على الفرس ، وقد صرح بذلك في المقدمة التي كتبها لمفصله حيث يقول : «اللَّهُ أحمد على أن جعلني من علماء العربية والعصبية ، وأبى لي أن انفرد عن صميم أنصارهم وأمتاز ، وأنضوي إلى لفيف الشعوبية وأنحاز ، وعصمني من مذهبهم الذي لم يجد عليهم إلا الرشق بألسنة اللاعنين ، والمشق بألسنة الطاعنين» ثم يقول : «ولعل الذين يَغْضُونَ من العربية ، ويضعون من مقدارها ، ويريدون أن يخفضوا مافع الله من منارها، حيث لم يجعل خيرة رسله وخيرة كتبه في عَجَمِ خلقه، ولكن في عربيه لا يبعدون من الشعوبية مناقبة للحق الأبلج، وزيفا عن سواء المنهج ، والذي يَقْضِي منه العجب حال هولاء في قلة إنصافهم ، وفرط جورهم واعتسافهم....» (٤).

ثم يمضي في هذه المقدمة يرد على الشعبيين تهمهم بالحجج القوية.

وهذه الروح من حبه للعرب ولغتهم ، وتفضيلهم على الفرس نجدها في أكثر من موطن في شعره ، وقصيدته التي سماها «العربية» (٥) حافلة بالإشادة بالعرب وأخلاقهم ، وبالتنويه بما شرفهم به الله حين اختار أفضل رسله منهم ،

١- الديوان ٤٨٨ .
 ٢- الديوان ٨٣ .
 ٣- انظر تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي ٤٥٩ .
 ٤- المفصل في علم العربية ، مقدمة الكتاب للزمخشري ٢ ، ٣ .
 ٥- الديوان ١٢ .

وجعل لغتهم لغة القرآن الكريم فكتب لها المجد والخلود ، بل إنه يذكر هزيمتهم للفرس فيقول فى هذه القصيدة :

وهم فرسوا أبناء فارس كلهم بأنيابهم وهى الرماح المداعس (١)
ويذكر ترفع النعمان بن المنذر عن مصاهرة كسرى؛ لأنه لم يجده كفئاً له،
فيقول :

وعن صهر كسرى صد نعمان بأوه فخنقه فى خانقين الفوارس
وهان عليه يومه قبل ساعة يكابد فيها صهر من لايجانس (٢)
ويرد على الشعوبيين مذهبهم، فيقول :

وقل للشعوبيين إن حديثكم اضاليل من شيطانكم ووساوس
لكم مذهب فل يغر بمثله أشائب حمقى لا الرجال الأكابيس (٣)
٦- حبه لآل على وبغضه لبني أمية:

ليس فيما بين أيدينا من الكتب مايدل على أن الزمخشري كان متشيعا، لكن قارئ شعره لا يخفى عليه ما يخص به الزمخشري عليا كرم الله وجهه وآله من حب وتعاطف ، ومايكنه لبني أمية من بغض وكراهية؛ لأنهم غدروا بالرسول وآله، واغتصبوا الإمامة بلا حق، كما يقول.

فحين يذكر حبه للرسول صلى الله عليه وسلم يقرن به حبه لعلى، فيقول:

كثر الشك والخلاف فكل يدعى الفوز بالصراط السوى
فاعتصامى بلا إله سواه ثم حبى لأحمد وعلى (٤)

وحين يمدح ابن وهاس يذكر نسبه إلى الرسول وصنوه ووصيه على بن أبى طالب وزهراته فاطمة البتو، فيقول :

١- الديوان ١٤ . ٢- الديوان ١٥ .
٣- الديوان ١٥ . ٤- ملحق الديوان ٥٤٩ .

ومن يكن ابنا للرسول وصنوه
ويقول :

زكى العرق ناطتْهُ عزوق
وحتى فى نسيبه نجده يتمثل بما حل بعلى وبالحسين على يدى المرادى
والكلابى، فيقول :

سامنى قتل المرادى علينا
وحيث يمدح الرسول صلى الله عليه وسلم ويتحدث عن حرب قريش لا ينسى
أن يشهر بأبى سفيان عميد البيت الأموى الذى قاد هذه الحرب ضد الإسلام قبل
أن يدخل فيه، فيقول :

كم أوقدت بغويها
صخر بن حرب حربها (٤)
ثم يذكر غدره هو وزوجه هند وذريته من بعده ، وما أصاب الإسلام وآل
الرسول على أيديهم، فيقول :

ودلى أبو سفيان خلف قذاله
لقد عقصتها هند ثم بنيها
وناشت على أقفاء ذرية طمت
ومالقي السبطان منهم كفى به
وياضت مرارا فتنة جاهلية
عقيصة غدر ، أين عنها العقائص ؟
مع ابن أبيه وهو صنو مخالفص
بآل رسول الله منها العوائص
مصابا له صدع إلى الشم خالص
فكان لها فى آل مروان فاقص (٥)

وحيث يمدح الخليفة العباسى، يذكر أن الإمامة حين انتقلت إلى العباسيين
استقام منها ماكان قد اعوج على أيدي الأمويين الذين اغتصبوها ثمانين عاما،

٢- الديوان ٢٦٦ .

٤- الديوان ٣١١ .

١- الديوان ٢٠ .

٣- الديوان ٤٤١ .

٥- الديوان ١١ .

فيقول :

وكان التوى ركن الامامة قبلهم فلما تولوها استقام المعوجُ
أقامت بلا حق ثمانين حجةً يُعالجها من نسل مروان أعلج^(١)

ولعله كان من معتدلى الشيعة الذين نهوا عن ذم الصحابة ، وجوزوا إمامة
المفضول من غير ذرية على بن أبى طالب على الأفضل من ذريته ، ولم يشترطوا
فى الإمام الا أن يكون كريما سمحا عادلا شجاعا^(٢)

فهو مع ولائه لعلى وآله كان يجلب الصحابة كلهم ، وكتابه خصائص العشرة
الكرام البررة يدل على ذلك ، لأنه يبحث فيه خصائص العشرة المبشرين بالجنة ،
وقد جمعهم هذان البيتان اللذان صدر بهما كتابه :

لقد بُشِّرْتُ بعد النبى محمد بجنة عدن زمرة سعداء
سعيد وسعد والزبير وعامر وطاحنة والزهرى والخلفاء
ولعل مما يرجح تشييعه أنه كان معتزليا ، والصلة بين المعتزلة والشيعة
معروفة من قديم^(٣) .

٧- اعتزاله :

اعتنق الزمخشري مذهب الاعتزال^(٤) ، وكان فى ذلك متأثرا ببيئته خوارزم ،
وأستاذه أبى مضر .

وكان قريبا فى اعتزاله يجاهر به فى افتخار ، حتى إنه كان إذا طلب الإذن فى

١- الديوان ٤١ .

٢- هذه الفرقة المعتدلة من الشيعة هى فرقة «الزيدية» انظر تاريخ الأدب العربى للدكتور
شوقى ضيف ٢٦٨/٥ ، ٢٦٩ .

٣- المرجع السابق ٢٦٦ ، ٥٧٦ .

٤- عن نشأة المعتزلة ، وأصول مذهبهم ، وتأييد الزمخشري له ، انظر: الزمخشري للدكتور
أحمد الحوفى ١١٢ - ١٦٦ .

الدخول على أحد قال لخادمه : قل له : أبو القاسم المعتزلى بالبواب^(١) ، وكان شديد الإنكار على المخالفين للمعتزلة من أهل السنة ، كثير التشنيع على المتصوفة ، جريئاً فى الطعن على أولياء الله فى الكشاف وغيره من مصنفاته^(٢) .

وعن اعتزال الزمخشري يقول الدكتور أحمد الحوفى : وليس من التزديد فى شئ أن نصف الزمخشري بأنه كان أبرع المعتزلة تأويلاً للأيات القرآنية ، لتطابق مذهبهم ، ومن حقه أن نشيد بأنه ماكان يريد من هذا التأويل الذى عنى به نفسه إلا أن ينزه الخالق سبحانه وتعالى عن أية شبهة قد تتسرب منها المشابهة لمخلوقاته أو المماثلة ، فقد كان الرجل عميق التدين عميق الإيمان ، عظيم التقوى غيوراً على الإسلام أشد الغيرة .^(٣)

وفى شعره مايدل على أنه كان فى مجالسه العلمية يدرس مبادئ الاعتزال وأصوله ، وينظر خصومه فى تعصب شديد .

يتجلى ذلك فى قصيدة له يمدح فيها ابن وهاس ، ويشكر له وقوفه بجانبه ينصره ، ويدفع خصومه ، وفيها يقول :

وقل ياأمنع الثقليين جارا	جزاك الله عن شيخ أتى
بعيد المستلاذ كليل ظفر	عن الأنصار فى بلد نطى
غضبت له وذلك نبض عرق	كريم غضبة النمر الأبي
زارت وراء دين المعدل زارا	وقد نبحت كلاب المغربى
فقد أشجيتهن بكل عظم	تنشبت فى اللهاة وفى المرى
ومن يغضب لدين الله يجمع	مراضيه إلى الأجر السنى

١- انظر مفتاح السعادة ٩٧/٢ ، وشذرات الذهب ١٢٠/٤ ، وإنباه الرواة ٢٦٩/٣ ، والطبقات السنية ١٢٥/٤ ، وبغية الوعاة ٢٧٩/٢ .

٢- انظر ربيع الأبرار ونصوص الأخبار مقدمة المحقق ١٥/١ .

٣- الزمخشري ٢٩٨ .

وليس الجبرُ والتشبيهُ إلا بقية إرثِ دينِ جاهلي
فقم بالعدل والتوحيد فيه تقمُ يابن النبي هدى النبي (١)

ولعل حدة هذا التعصب قد خفت عنده فى نهاية حياته ، لاسيما بعد أن آثر الطريقة «الأويسية» وترك الاشتغال بكل شئٍ إلا بكتاب الله ، وانقطع للعبادة منتظرا داعى ربه .

وهذا ياقوت يذكر أبياتا فى معجمه ، ينسبها إلى الزمخشري ، وهى تدل على أنه إن لم يكن ترك الاعتزال فقد نأى عن الخوض فيه والتعصب له بعد أن كثر الشك والخلاف وادعى كل فريق لنفسه الصواب ، فقد وجد أن النجاة فى الاعتصام بحبل الله ، وحب الرسول وآل البيت . وهذه الأبيات هى :

كثُرَ الشكُّ والخلافُ فكل يدعى الفوزَ بالصراطِ السويِّ
فاعتصامى بلا إله سواه ثم حبى لأحمدٍ وعالىِّ
فاز كلبٍ بحب أصحاب كهف كيف أشقى بحب آل النبي

وفى حديث المقرئ عنه مايؤيد هذا الاحتمال ، فإنه يقول عنه وهو يتحدث عما أنكره عليه من الاعتزال «وذكر بعضهم أنه تاب» وإن كان هو (أى المقرئ) قد استبعد ذلك قائلا : ويأبى ذلك تصريحه فى كشفه بما خالف السنة جهارا ، فإنه لو صح ذلك لمحاه ، أو أشهد على نفسه بالرجوع عما قصده فيه وانتحاه . (٢)

٨- مذهبه الفقهى :

كان الزمخشري حنفى المذهب ، (٤) وقد افتخر بانتسابه إلى هذا المذهب مبينا أنه ينتقى أساتذته ممن ينتمون إليه فقال : (٥)

١- الديوان ٢٦٧ . ٢- معجم الأدباء ١٩/١٢٩ وملحق الديوان ٥٤٩ .

٣- أزهار الرياض ٣/٢٢٢ .

٤- انظر : مفتاح السعادة ٢ : ٩٧ وبغية الرعاة : ٢ : ٢٧٩ وشذرات الذهب ٤ : ١٢١ وقد ترجم له فى الجواهر المضية فى طبقات الحنفية ٢ : ١٦٠-١٦١

٥- الديوان ٩٣ : ٤٢ ، ٣٣ .

وأسند دينى واعتقادى ومذهبى إلى حنفاء أختارهم وحنائفا
حنيفية أديانهم ، حنيفةٌ مذهبهم ، لا يبتغون الزعانفا
وكان لإمامه أبى حنيفة النعمان مكانة عظيمة فى نفسه مما جعله يحمل
مؤلفاته إلى مشهده بباب الطاق فى بغداد، ويقفها عليه كما سبق أن ذكرت .

ومع حبه لإمامه لم يكن متعصبا أو متحاملا على أتباع المذاهب الأخرى، بل
كان يجلب العلماء أيا كان مذهبهم الفقهى، وله فى الإمام أبى المظفر السمعانى -
وكان قد انتقل إلى المذهب الشافعى بعد نبوغه فى المذهب الحنفى(١) مرثية تدل
على إجلاله له وتعظيمه لعلمه وإمام مذهبه ، كما يتجلى ذلك فى قوله منها :

أين الذى لو شربناه لما أخذتُ ببعضه هذه الدنيا بأجمعها
أين الذى الفقه والأدبُ إن ذُكرتُ فهو ابنُ إدريسه وهو ابنُ أصمَعِها
من للإمامة ضاعت بعد قِيمِها منْ للخطابة عَيّت بعد مصقَعِها(٢)

وقد عرض فى كتابه الكشاف لمسائل فقهية كثيرة ، لم يقتصر فيها على
مذهبه الحنفى ، بل كان يورد الأحكام فى المذاهب الأخرى ، وكان يرجح أحيانا
مذهب الشافعى على مذهب أبى حنيفة .(٣)



١- انظر : النجوم الزاهرة ٥/ ١٦٠ .

٢- الديوان ٢٤٦ .

٣- الزمخشري للدكتور أحمد الحوفى ١٦٧ - ١٧٤ وقد ذكر سيادته لذلك الكثير من الأمثلة .